

مخالف مودام

أماظة



أسرار السياسة



للاستاذ فكري ابازة

Publication of this book under the supervision of the Ministry of Education, Beirut, 1970.

صحائف سـوداء

في تاريخ الانجليز في بلادنا



من عهد عرابي باشا

إلى وقتنا هذا

التي هيئة الطباعة: الطبعة الأولى: ١٩٧٠

رقم الكتاب	٥٠١
رقم الطبعة	١

الثنى هـ صاغ

الاهداء

اعترافاً بالجميل . وتقديراً للفضل . وإقراراً بالمعروف . نهدي هذا
 الكتاب الى مصر العزيزة . الى نيلها وسودانها وملحقاتها . الى الشهداء
 والضحايا الذين تركب من عظامهم ترى هذا الوطن طبقات فوق طبقات :
 طالبة إنصافها بانقاذها من رجس الأجنبي . وتطهيرها من دنس الغاصب .
 الى المتقين الذين هم بحق الوطن يؤمنون . وعدوده وفاق الطبيعة وسلطان
 التاريخ هم يقيمون . وفي هذه السبيل بما رزقهم الله وبما يشتهون وقاية لهذا
 الحق واحتفاظاً به مصوناً رايها نامياً هم ينفقون . والذين يسعون بما شرعه الاله
 والقرون والمدائن والقرى المصالحون من عطات . وبالتجارب القومية هم
 يوقنون . وبحساب ربهم يثقون . وبالأخرة يصدقون .

وترحيباً وتكريماً . نهديه الى قوم عتوا عن أمر ربهم . وخانوا عهد
 وطنهم . وقالوا في جمال واسنكبار . وفي غير استحياء ولا استعبار . إنا
 بالذي آمنتم به كفرون . ولما أخذتم الرجفة . وأصبحوا في ديارهم جائعين .
 وجاءتهم البيضة . فكشفت ماران على قلوبهم . وأضحوا على ما فعلوا نادمين .
 تابوا الى الله . وآنابوا الى الوطن .

وهدي ورحمة وذكرى . نهديه في النهاية الى الذين أشركوا بالوطن .
 وزين لهم الشيطان قتل أمة آمنة مطمئنة عزلاء ليردوهم . والذين يجرّفون الحق
 من بعد مواضعه . عسى أن يزكي الله قلوبهم . ويقيمهم في الدنيا حزيماً . وفي

الآخرة عذاباً عظيماً . هـ إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضرروا الله شيئاً .
ولهم عذاب أليم . ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيراً لأنفسهم . إنما
نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين . ما كان الله لينذر المؤمنين على ما أنتم
عليه حتى تميز الخبيث من الطيب . وما كان الله ليطلعكم على الغيب . ولكن
الله يجتبي من رسله من يشاء . فآمنوا بالله ورسوله . وإن تؤمنوا وتتنقوا فلکم
أجر عظيم . نـ

أحمد و فيق

تنبيه

وَضَعْنَا مِنْ هَذِهِ الْمَذَكِّرَاتِ حَتَّى الْآنَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ صَحِيفَةٍ مِنَ الْقَطْعِ الْكَبِيرِ
وَلَقَدْ كُنَّا اعْتَرِضْنَا أَنْ نَصُدِّرَهَا فِي أَجْزَاءٍ كَبِيرَةٍ الْحُجْمِ . وَلَكِنْ إِرْتَأَيْنَا
مِرَاعَاةَ لِلظُرُوفِ الْحَاضِرَةِ وَتَمَكِينًا لِلْقُرَّاءِ مِنَ الْإِطْلَاعِ أَنْ نَذِيهَهَا أَجْزَاءً
عَدِيدَةً فِي هَذَا الْحُجْمِ الصَّغِيرِ



مناسبة الاصدار

ليس لي أن أنهر ذكرى معينة، أو أتحين واقعة خاصة لأصدار كتابي « في سبيل الوطن ». مادام عنوانه قد انطوى على معنى الجهاد . وما دامت صفحاته أشعة وهاجة ترسلها شموس أشرقت في تاريخ مجد القوميات . ومادام الاحتلال البريطاني لا يزال في وادي النيل جائعاً .

إن كل يوم من أيام الاحتلال مناسب لأصدار هذا الكتاب . ففي كل يوم ذكرى استشهاد . بل في كل يوم تستشهد مصر مع غروب الشمس لتبعث حياة مع شروقة . وإذا كان الانتحار الأدبي قد حل محل الاستشهاد اليومي في السنوات العشر الأخيرة . قضاء لأخط الأمانى . وتحقيقاً لأبغض المصالح في أيام المحن والكوارث العامة . فإن في هذا الانتحار الأدبي معنى الاستشهاد مادام فيه شق الطريق لتطهير يفضى إلى تعرف حقيقة الرجال الذين يستطيعون في النهاية وبعد الصبر الجليل على الأذى والنوازل أن يعملوا الانقاذ العام بتضحية مصالحهم وصحتهم وذواتهم وأموالهم وأثرتهم . غير مستبقيين إلا سمعة الوطن وسمعتهم بالتبعية للسمعة العامة .

فأصدار الكتاب هو إذن بمناسبة الاستشهاد اليومي العام في سبيل المصلحة القومية

ولما كانت هذه هي المناسبة . فقد حق علينا أن نحيي شهداءنا في شخص سيد الشهداء . وأمام الزعماء الأطهار « مصطفى كامل باشا » . قائد النهضة المصرية الزهية التي لم تعرف تراجعاً عن المبدأ . ولا زكناً في العهد . ولا زكولاً عن الدين . ولا ادباراً عن اليقين . ولا تسامحاً في عقيدة أو دين . ولا زعزعة في رأي . ولا تواني في هدى . شرع مجاهدة الانجليز فلم يلو آؤء عن صراطه . وسن مناهضتهم فلم يحد عن خطه واشراطه . فلهذا ناصبهم العداء

هنا نزل الميدان بتولى قيادة مجالدهم. حتى يحيط جسمه ساحة القبر. وصعد روحه إلى ديار الحق.

وفي هذا اليوم يخلق بنا أيضا أن نخفي من حول مصطفى هالة الشهداء. الذين أحاطوا بمبعث الإيمان الوطني أطارا انتظم لطيف سليم باشا. وعلى نغرى بك. ومصطفى نجيب بك. وصهر لطفي بك. وحارس باشا. وحسن رضوان باشا. ومحمود نيس بك. وسماعيل الشيمي بك. ومحمد فريد بك. وعبد اللطيف الصوفاني بك. ومحمود ~~بك~~ بك. وسماعيل حافظ وأحمد لطفي بك. ومنصور رفعت. وعلى فهمي كامل بك. ومحمود ناشد بك وأمين الراقمي بك. وعبد العزيز جاويش بك وأحمد وجدى. وسماعيل ليب بك. وأحمد فؤاد وغيرهم من الجنود المجاهدين الذين تألقوا في سبيل التضحية ومموا انقاذاً للوطن وحقوق الوطن. أن الوطنيين الأبرار ليدركون في كل يوم وهم يستشفون هذه الخيالات النورانية مدى تلك السماء الشاسعة الأغوار تغلغلتم صمدها في أعماق الانسانية وأصطلح العالم على أن يسميها الروح الوطنية.

ففي كل يوم يرى المخلصون في كبد القبة الزرقاء نورا تركز ليرسل إلينا إشعة قوية لا تقربها يد. وإنما تحسها. ولا يمسه جسد. ولكنه يشعر بها. ولا يدركها عقل. وأن مثلك أممه. ويقعرون دون تعريفها النقل. وأن تجسدت قدومه. ذلك أنها تنفذ إلى القاب مباشرة. لتخاطبه بلغة العاطفة. وتخاطره في طهجة الاحساس. أنها أشعة في الداخل ساطعة. وفي الخارج لامعة. يراها الوجدان دائما في ريعان الشباب. إلا تبلى ولا تتجدد. غصة الالهة. ناعمة خلا ملسها من التجمد. أسحابة كانهفاس الاحباب. آيتها الانتشار والتمدد. تقبل دائما ولا تدبر. وإذا انكشفت فلتستجيم حتى تكرر. دوز أن تتراجع أو تفر. أبداً منوثة لاداء الواجب في دأب.

هذه آية «مصطفى كامل» والذين نتأوا حوله رصائع في محيط الشهداء. إنها معجزة هذا العصر الذي أمسى فيه للرزيلة جلال. وللنقيصة تقدير واجلال. إنها الطير في وكره. يفيض حنانا ورحمة وعطفا على الابناء المخاضين. والعصر في شجره. يتدفق حياة ونشاطا وثمره. للوفياء المتقين. والمهل في أصمق البراكين. يغلي ويزجر. ليندفع وينصب على العاقين والشياطين. ويظهر الخور من أدران الفاسقين. وينشر الخصب والبركة. بين البررة المهضومين. يخرج كما يخرج الحق من الظلام. ويمرر كما يمرر الظلام من الغضب. تبجل حقيقة هذا الشعاع ولكنك تراه نوراً في كل مكان ومن البعث أن تحاول مسه في أي آن. فتحية إلى الشهداء في يوم ذكراهم المستمر. وسلاماً على من كانوا ولا يزالون الشمس في حرارتها وقد جلسوا على عرشهم يطلون على صحراء الامام والمجاورين. يرقبون شئون امبراطوريتهم. ويتجولون من الافق على رعيهم. والكل ينعمشون بنظرهم. ويتزودون لسيهمهم. ويستنشقون إتهومات حفيهم. فاسطعوا يأسادة الاقوام. والمعوا وازدهوا فوق الآلام. فواذي للثليل قصركم. وأهله حاشيتكم. وهماؤه وسادتكم. وأرضه تنبسط على أعينكم وتدور. لتسدوا عليها من سلامكم بهجة الخضرة والنور. وروعة النضرة. والسرور. وتسبلوا عليها ثوبا من جلال القوة والمقدرة. بينما الزمن يجري على مرأكم خاشعاً. وإذا ما دنا منكم هرول راكم. ضارحاً أن تنتصفو له من نفسه. وأن تؤاخذوه على جريرة تلبيسه وبأسه. وتقتصوا منه الجزية تردده. وإبلاسه. وخبثه.

الزمن ! إنه هذا الجيل الذين أطاعوا الفاوين. ولما برزت لهم الجحيم. ودنوا من حافتها ليكبكبوا فيها مع المبلسين. طمعوا في أن يغفر الوطني خطاياهم. وأن يلحقهم بالصالحين. وأن يجعل لهم لسان صدق في الآخريين.

وما نزلت الجنة إلا للمتقين الذين يقولون بأسمائهم ما في قلوبهم .
الزمن ١ إنه هذا الجيل الذي يسمى إلى الشهادة ويخفد . وإذا ما تلقى
عليهم أقمى الدروس عاداً دراجه وفي السير جد . فما لا يلوى على شيء . هلوماً
ومن خلفه جلال الجبهة الهادئة الساكنة يضيء له الدياجير . ويكشف له
بمصابحه عن المصير . في مقدرة لأتجارها بين الانسانية مقدرة . ذكرها
نوار . وغياها ليل .

قيام صدر أنوار القلوب ! لقد فسدت النفوس . وتحللت الاخلاق . وأصبح
يطعم في القفاس . من عاف الطين والذهب بالامس : وأمسى في مصر شبان
وشيوخ ورجال ونساء يحتضنون الجريمة . ويتخذونها رأس مال بحاربون به
الامة في كرامتها وشرفها ومهمتها . عدل لقمة يتبلغونها . وقابل حصاد
يتمرقون في قذارته . فنزلوا بالاخلاق إلى أحط دركات الفساد المؤدية بالفرد
والجماعة إلى جعل عنصر الاجرام مقومات الحياة ودعائم الشرف وتكآت
الكرامة . وخبوطا صالحة لتكوين انسجة الضمير واصطناع الياف الائمة .
وكل ذلك راجع إلى الاستهانة بحق الامة . وجعله موضع مساومة على
المناصب والوظائف والحكم ووقف المنافسة على ما يرمى اليه هؤلاء الذين ينعصبون
للنصيب . ويحذرون على الوطن ويحنفون « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس
قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء . ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا
أقوا الذين آمنوا قالوا آمنا . وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا انا معكم إنما نحن
مستهزون الله يستهزئ بهم ويعدهم في طغيانهم يعمهون . أولئك الذين
اشترؤا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذي
استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون
معهم بكم عصى فهم لا يرجعون »

يا مصدر أنوار القلوب ! لقد انصرف غالبية الأمة عن صراطكم السوي
وخرجوا على مبادئكم. وجروا مصر إلى الفحش في الوطنية. وإرتداء رث
الاثواب القومية. وامتنان الكرامة العامة. ولقد ذكرنا هذا الموقف بموقف
« كورديليا » في رواية الملك « لير » فيمد أن غدر بها هذا الملك. وانزع
منها حبه. وسلبها نعمه. وحرمت طبيبات الحظ هجرها خطيبها الدوق ده
« بورجونيا » ولكن ملك فرنسا فجأها قائلاً : « أن يؤسك يا كورديليا الحسناء
قد جعلتني أراك أغنى منك في أي وقت مضى. وعزلتك قد رفعت من
قدرك. ومأساتك قد ضاعفت حبي إليك. فيما أنهم هجروك والقوك فوق
للثرى فاصحني لي بأن أرفعك في إحترام متأجج. ولتكوني ملكتي وملكتنا
ومملكة رطايانا وملكة فرنسا الجميلة »

لقد أحب الحزب الوطني « كورديليا ». أحب مصر المغلوبة المنكودة المنكوبة
المضطهدة عندما هجرها أبناؤها. وطلتها زعمائها. وخان عهدها قادتها. فعقد
عليها بدافع شقوتها. والعمل على راحتها وطمأنيتها. وفي سبيل انتقاذها
احتقر مظاهر الزواج الفنى. وازدرى بالمناصب. واشماز من الطين والعقار.
وظفق بعزها بأجل أناشيد التشجيع. ويسلمها بأعذب ترانيم الشنان والمطف
المتدفق لمن أعماق قلبه القوى قوة قلوب الفرسان في هجراتهم. الرحيم رحمة
قلوب أحن الوالدات على فلذات أ كبادهن .

ولكن سوء الحظ قد انتقض على رجال الحزب الوطني فانهمكهم واضطهدهم
وشردهم . فما كان من « كورديليا » إلا أن وجدت سريراً للشقاء والآلام مريراً
قاسياً فقالت للحزب الوطني : « تألم وحدك ولا ذهبن إلى حيث الذهب الوفير
والفراش الوثير . حيث يملو جبينى رياحين النصر وأ كاليل الظفر والفخر »
ولكن لثرت لحظها . ولنغفر لها ولانلن الايام التي همنا فيها بحبها ساعة إذ

تجملات بدموعها . ولنمنح عنها . فقد أضلت فضلت . وخدمت فأنشدت
وضاعت ثقتها . وآن لها أن تندم على ماقات . وتتدبر ماهوآت . ولا زلنا على
موعدها في سبيل خدمتها وخدمة الإنسانية الجريئة الدامية . ولتعلن مصر أن
الحزب الوطني « كزرع أخرج شطأه فأزره فاستغاث فاستنوى على سوقه يعجب
الزرع لغيظهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة
وأجرأ عظيم »

يا مصدر أنوار القلوب ! دمت ودامت أنوار إيمانكم تنساب أمطارا
ذهبية تهطل فتتخلل خيوطها على أجنحة الهواء . فإذا بها ألوان فصول السنة
اكتسها الغبراء . لتجعل أنصاركم أقوياء مننجين . وجوههم نضرة . لا ترهقهم
فترة . كالاشجار كسها الطبيعة أثوابها الخضراء . وأولتها ثمارها الفسحاء .
يا مصدر أنوار القلوب ! إقذفوا باسعتكم على الذين ناصبوا مبادئكم العدا
انتصارا لمصالحهم الخاصة . أقذفوها حولهم من كل مكان حتى تكون « دشا »
ساخنا يطهر الأدران . ولتخلعن عليهم جاذبية تققاد اليهم المبادئ الصادقة
كتلك الجاذبية التي تخلصهم السماء على الرياحين والورود . تراف من الأزياء
والألوان . حتى تتسابق المبادئ اليهم فتلبسهم . فلا يتجشمون نصبا . وتغرو
نفسها بهم فلا يتكبدون في اعتناقها نعبا .

يا أيها الأرواح الكريمة ! تناولي ريشة الفن . وصوري لهؤلاء الذين
زهدوا في الحق . وطمعوا في الباطل . صوري لهم وفاق مقتضيات الحال . وما
أصبحت عليه حاجة السادة « ختم الله على قلوبهم وعلى أبصارهم
غشاوة ولهم عذاب عظيم » . صوري لهم خلعة سنية . وحلي بالذهب والفضة أجسادا
تعشق الذهب والفضة . ولوحى لهم بلوحات براقة أخاذة من أخف المعادن
وأغلاها لمن يعبد أخف المعادن وأغلاها . وأسبغى ثوبا من البرد للذين يريدون

أن يكونوا فرقة بيضاء - أو كوكباً في عين دعاء . واسبلى معطفاً من رداء على الدين .
 يرغبون في أن يكونوا وردة حمراء . وجلى كبار المطامع كما جات القدرة
 الطاووس . بأبداع ما صنم الباري من جماع الألوان . ليختاروا اختيال العروس .
 يعجب برشاقنها الفنان . وانفجى الاطلم ثوبا من خيوط الفجر . يباهون به
 السكواعب الحسان . واحتفظى لنا بزقة السماء علنا . نتمتع يوماً بما تنبت
 الثروة من صحو ينمكس ضياؤه على سطح البحر الهادئ فتتمثل أمامنا طبيعة
 القلب . والافارغى ضياءك على القلوبك ينمكسها . ويسلك الخماسة فيها ويحييها
 ويعلمن للوجود . معنى الخلود . «وأصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة
 والعشي يريدون وجهه . ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع
 من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً . وقل الحق من ربكم
 فمن شاء فليؤمن . ومن شاء فليكفر أنا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها
 وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه . بئس الشراب وساءت مرتقفاً»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« ولولا فضل الله عليك ورحمته لممت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم . وما يضرونك من شيء . وانزل الله عليك الكتاب والحكمة . وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما » وصلاة وسلاما على من أنزل عليه « فلما انبجأ إذا هم يبخون في الأرض بغير الحق . يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم اليانما مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون . إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والانعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزبنت . وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرا ليل أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس . كذلك نفعل الآيات لقوم يتفكرون » محمد صلى الله عليه وسلم . سيد المرسلين . وخاتم النبيين . وأمام المجاهدين . أقام صراط الخلود على أن « من في الدنيا ضيف . وما في اليد طارية . والضيف مرتحل . والمارة مؤداة » وسن قاعدة المجد على أساس حديثه الشريف : « أحمذوا الدنيا وحلاوة رضاعها لمراة فطامها » . ورضوان الله على صحابته والواهدين في حطام الدنيا « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله . والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم » أما بعد فهذه « فاتحه » كتابي في سبيل الوطن « وهو كتاب أخرجته للناس هدى ورحمة . في عدة اسفار جعت منذ كراتي ولا سيما ما دونته منها خلال حياتي السياسية التي بدأت في سنة ١٩٠٦ . واني

لا نشعر بهذه المذكرات تلبية لنداء الدين كرتهم المحنة الحاضرة . وأجابة للخلق الوطني القويم ناشدني الاستمرار في جهادي بعد أن أوصدت أمامي سبل النشر الأخرى . والفكرة القويعة لها أثرها سواء أكانت أذاعتها بالصحف أم بالمجلات أم المنشورات أم الكتب مادامت التربة صالحة لانبثاقها . والجو ملائماً لترعرع نباتها . والله أسأل أن يجعل هذا الكتاب مصححة للاستشفاء يجب فيها المصباح بالسل الوطني غذاء يساعده على المتأومة . ويعترف فيها المريض بالاضطراب الذهني على دواء يشفيه من مرض القى العقل والمفص الخي ويتفقد فيها المتعب ضالته من الراحة ليسترد بها الاتزان الفكري

سبب الاصدار

ان اسم كتابي « في سبيل الوطن » صريح في الدلالة على سبب وضعه والغاية منه . فالسبب واحد . والغاية واحدة . كلاهما لا يتجزأ . ولا ينقص ولا يزداد عليه .

إن السبب هو الاحتلال . والغاية إجلاء الاحتلال . بتقديم الخلق القومي وانماء الشعور الوطني والحرص على إطراد هذا النماء للانجليز خطة مرسومة نحو مصر . ولقد طفقوا يحاولون تنفيذها منذ سنة ١٧٧٥ وفي كل دفعة كانوا يفسلون فيها يعمدون العمل لإنجاحها كرة أخرى . وفي شكل آخر . ولكن جوهرها هو هو . واحد لا يتغير ولا يتبدل وهو ضم مصر إلى إنجلترا بإرادة مصر وإقرارها .

ولقد اعتادت إنجلترا في كل جيل أو ما يقرب من جيل — مع احتمال الزيادة والنقص — أن تقطع مرحلة من هذه الخطة . فان ركزت أقدامها عندها وثبتت بدأت مرحلة أخرى بعد إنتضاء هذه المدة . وعلة إنتضاء الثلاث

والثلاثين سنة واضحة هي العمل على طبع الجيل القادم بطابع خاص .
 في سنة ١٧٧٥ ، أبرمت إنجلترا مع أبي الذهب معاهدة خاصة بمرفأ
 السويس ورسو السفن الانجليزية هناك . ولما كان ثغر السويس أوبرزح السويس
 اوقاة السويس هي مصر . بل وادي النيل والاماكن المقدسة . فان خليفة
 المسلمين أصدر في ذلك الحين فرمانا يقضى ببطلان هذه الاتفاقية . خفضت
 إنجلترا وقتئذ لقوة السلطان وشوكته . ولكنها لم تقلم عن غاياتها . ولم
 تستأصل جرثومة الطمع في مصر من اعماقها . بل تحبذ الفرصة وتربصت بمصر
 الدوائر حتى تقتنصها . فاذا ما وقعت بين أيديها لا تفلتها .

في سنة ١٨٠٧ — ولا يمكن سياسياً أن تكون مطاردة بونايرت في مصر
 تنفيذاً لخطّة احتلال مصر — أنزلت إنجلترا جنودها في الاسكندرية بعد أن
 أطلقت مدافعها على الابرار فهدمتها . وأبرمت معاهدة حماية مع حاكمها .
 كما أنها كانت قد عقدت مثل هذه المعاهدة مع البرديسي حتى يتم لها خضوع
 مصر . ولكن الشعب المصري أكره الانجليز بعد معارك رشيد وغيرهما من
 المعارك التي وقعت في البحيرة على الفرار حتى ركبوا البحر وفي طيات أعلاهم
 آيات الخزي والعار . ولقد أبرموا في ذلك الحين معاهدة مع وزيراً خارجية
 مصر ولكنها لم ينفذوا من نفوسهم الغل الذي أنبته غلب المصريين
 وانتصارهم عليهم . وجعلت الفرحة تنزّكاً إذ كروا الطعنات التي توالى على
 أققيةهم بين رشيد والاسكندرية . ولذلك رأبناهم يشتركون مع روسيا
 وفرنسا في تدمير الاسطول المصري غيلة وخيانة في معركة ناورين في تشرين
 أكتوبر سنة ١٨٢٧ . ثم قاوموا محمد علي فيما بعد بمناسبة معاهدة كوتاهية
 سنة ١٨٣٣

وفي سنة ١٨٤١ أتمت إنجلترا شطراً كبيراً من مهمتها . إذ أضعفت مصر

إضعافاً كبيراً بمعاهدة لنندرا وما تلاها من فرمانات . ولما توفي إبراهيم ومن بعده محمد علي . هدمت مجدهذين البطلين بيد عباس الاول . ثم حصلت على امتياز سكة حديدية بين الاسكندرية والسويس وقامت فكرة حفر قناة السويس . ثم سلبت من قيصر روسيا في سنة ١٨٥٣ . ومن نابليون الثالث سنة ١٨٥٧ تصريحا بالاستيلاء على مصر . وفي سنة ١٨٦٦ أعدت حملة لغزو مصر ولكنها حادت أضرارها وهي في منتصف الطريق بمناسبة الهدنة التي عقدت بين ألمانيا والنمسا . ثم حالت دون إعلان استقلال مصر في سنة ١٨٦٩ وفي سنة ١٨٧٢ وفي سنة ١٨٧٥ بطشت إنجلترا بمصر البطشة الادبية الكبرى . إذا أوفدت المستر كيف لمراجعة حسابات المالية المصرية . واشتركت في صندوق الدين . وفي نوفمبر من تلك السنة أتمت الصفقة الخاصة بشراء أسهم الحكومة المصرية في شركة قناة السويس فتم لها الفتح الادبي . وتلا ذلك العمل لتثبيت هذا النفوذ وتحويله إلى نفوذ مادي . ثم جاء جوشن في مهمته . وقرر مؤتمر برلين في جلسة صريه بإعلان بسمرك الموافقة على المراقبة الثنائية قصداً إلى قيام الخلاف بين إنجلترا وفرنسا في مصر كما قام بين ألمانيا والنمسا في شلسويج هولشتين . وأعقب ذلك نزول الطامة الكبرى . إذاحتلت إنجلترا مصر في سنة ١٨٨٢ فاستحال النفوذ الادبي إلى نفوذ مادي حيث أمكنها رغم ان اتفاقية الاستانة أن تحاول املاء ارادتها على الدول فيما له مساس بمصر أو بموقف الاحتلال البريطاني فيها . وجعلت من مفاوضاتها مع الدول قصداً إلى الجلاء عن وادي النيل كما جعلت منها مع احزابنا الحكومية خرشوفة تنزع منها ورقة أو عدة ورقات في كل دفعة . وناهيك بذلك التحفظ الذي حلقت عليه نفاذ معاهدة سنة ١٨٨٨ وهو الخاص بعدم التعرض لجيش الاحتلال في مصر . ثم اشتراط عودتها إذا اختل الامن في مصر بمسد جلائها عنها . وهو الشرط الذي اخفقت من أجله اتفاقية دروموندولف . أضف

إلى ذلك كله تصرفها في الأراضي المصرية بعد أن أرغمنا على ترك السودان .
اقتطعت من جسم مصر أجزاء شاسعة . أجرت بعضها وتنازلت عن الباقي
الأخر مما تعلّق بذه إلى مصر على شرط أن تصبح قادرة على حكم نفسها بنفسها
استعادت السودان باسمها والناو دماثا و جعلته شركة بيننا وبينها على أن يكون على
الغرم فيها ولا إنجلترا القم منها . ولقد كانت المعاهدة الخاصة بتسوية
السفلى (السودان) بين إنجلترا وفرنسا هي إبدأ تصفية الحساب بين
الدولتين .

وفي سنة ١٩٠٤ تمت تصفية الحساب . وأمضت فرنسا وإنجلترا الـ
الودي . فأنطلقت يد إنجلترا في مصر رغما من أن وضع القضية الـ
لم يتغير .

اكتسبت إنجلترا في مصر هذا المركز . ولكنه لم يرض كل مطام
فأعزمت أن تعمل على توطيد أقدامها وترسيخ أساس استعمارها .
إذا ما جاء أجل الاتفاق الودي في سنة ١٩٣٠ استطاعت أن تواجه الدول
واقم . ولكن الحوادث والحظوظ سبقتها إلى تحقيق غايتها . وخيانة الظن
والسياسة شدت أزرها . فقد وقعت الحرب في سنة ١٩١٤ . وحسرت الـ
النتام من حمايتها المقنعة وجاءت بحماية صريحة فيل وقتئذ أنها لضرو
حربية . وهي حماية لم ترفع حتى الآن فعلا وأن تبجح البعض في القول
رفعت . وأن إنجلترا كفت أيديها عن التدخل . إذ القانون الدولي
وجود الحماية نظريا . والتدخل السري يؤيد وجودها العملي فعليا . وهذا
دليل أقطع على وجودها من أننا لا نعمل عملا إلا إذا راق إنجلترا ؟

وها هو جيل جديد يطل علينا . فإذا اعددنا لمقاومة ما عسى أن تقا
به إنجلترا في مستقبل الجيل القادم ؟ لمن المحتمل أن تقا جئنا بما يصرف -
عن غايرنا كتمسير حملة لا كتساح الحبشة مثلا تحقيقا لمشروع غلادستون
كما أنه من المحتمل أن يفاجأ العالم بكارثة حرب عالمية جديدة . فهل نحور

قوة تقاوم بها الاحتمال الاول . أو على اجماع يمكننا من انتهاز فرصة الاحتمال الثاني لا نتزعج استقلالنا وتدعيمه ؟ ليس الامر بداع إلى التردد والحيرة أو التشكك . فالموقف واضح . والاستعداد جبلى . ولا جواب إلا أننا اليوم لعاجزون عن القيام بأى حركة كريمة شريفة . فما هو السبب ؟

محنة اليوم

إننا اليوم فى محنة ، وهى محنة نفسية خلقية عقلية عصبية مامة . ولقد نشأ الحزب الوطنى بها منذ الناشئة الاولى لتكوين الوفد .

أبان الحزب الوطنى حقيقة المصير القدى ألنا اليه اليوم ساعة إذ يقابل سعد المير ونجبت فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ وتنازل له عن مصر مقابل تنظيم للحياة على قاعدة منح بعض امتيازات داخلية للامة المصرية . وأبانه ساعة إذ خطب سعد فى الجمعية الجغرافية ، وساعة إذ أصدر الوجهاء ومن فى حكمهم منشورم الذى سجلوا فيه على مصر مسئولية الثورة عند ماعين الفيلد مارشال اللبى حاكماً مطلقاً على مصر والسودان فى مارس سنة ١٩١٩ . وإبانه بمناسبة المفاوضات مع ملتر وفى كل مناسبة أخرى سواء بمنشوراته أم خطبه أم كتبه أم تقاريره أم صحيفة اللواء المصرى والاخبار أم باقلام كتابه ورجاله فى كل عهد من عهود الثورات الحزبية . وكذلك أبانه نوابه من فوق منبر البرلمان .

ولقد علل الحزب الوطنى هذا التنبؤ أو التوسم بضعف الزمامة ضعفاً سياسياً خلقياً عقلياً عصبياً . وعجزها عجزاً مطلقاً عن فهم الآثار المترتبة على قانون التوارث المصرى العام . حتى انتقلت العدوى من الزمامة الى الامة . فأصبحت

متردة حائرة متشككة لا تستطيع حكماً ولا استقراراً . لان الرأى تسلسل
عقل نسبي على أنصاف عقول أو على لا عقول أو على عقول . وانصاف عقول
لا تفهم أنها في هذا المستوى . ومتى انقاد كل ذلك الى الضعيف العاجز سياسة
وخلقاً وعقلاً وعصباً . انطبم بهذا الطابع وتخلق بهذا الخلق وقاده ذاك العقل
وحكمه هذا المصعب في ظروف ومناسبات خاصة إن لم يكن على التوالى .

واليوم نرى المريض الذى كان بالامس موضع علاجنا يتخيل أن الأمان
أصل الداء . والحكمة في ذلك اشتداد المرض عليه . والمريض هنا ليس حزباً
حكومياً خاصاً وانما جميع الاحزاب المستوزرة . لاننا لا نزال نعتبر الوفد
وحدة قائمة لم تنصدع في أى وقت . ولم تنشقق لاي شهوة أو مصلحة . لا ذ
شهوة الجميع واحدة . ومصلحتهم واحدة . هي إذلال النفس مقابل مناصب
الحكم . واذا كان هناك خلاف بين الاحزاب قائماً في الوسيلة المتروكة الى استبقاء
الحكم . فالبعض يركن في ذلك الى الاعتماد على الدهاء وهم رجال الوفد . والبعض
الآخر يعتمد على التشريع وهم الاحرار الدستوريون والاتحاديون والشعبيون
وفي الحق أن سعد زغلول لم يمت ولا يزال يجمع بين الاحزاب المستوزرة . لأن
الوفد لم يتحول عن سياسته . والاحرار الدستوريين الذين خرجوا أول من خرجوا
على الوفد يطبقون فكرته وأن تصوروا أنهم هيئة قائمة بذاتها . والاتحاديين
الذين تكامل عقدهم من انقراطوا . من هنا وهناك . ينفذون خطة
الوفد . والشعبيين الذين تجمعوا من قائلهم تحقيق المصلحة الخاصة أو بعضها
إمام انتسابهم للاحزاب الاخرى يسمون بما رجعهم سعدورشدى وعدلى وسعيد
ويوسف وهبه ويحيى ابراهيم وتوفيق نسيم وزور وروت ومحمد محمود
والنحاس . ولذلك فلا يجوز أن يتراسق هؤلاء الاحزاب المستوزرة بتهمة الاعتماد
على الانجليز ولا أن يعير هذا ذاك إذا هو حرص على مصلحته الخاصة مادامت سياسة

الجميع واحدة هي القناعة بفتات الموائد البريطانية والزهدي فيما لا أرضاه انجلترا . وإذا كان المقام لا يتسع لكل ما أوردته الصحف الوفدية والحرية الدستورية والاتحادية والشعبية والمحايدة من آراء خاصة بقانون التوارث لقوى . إلا أننا نورد جملة ثالثها السياسية بعددها الصادر بتاريخ ٣١ يناير سنة ١٩٣٢ بمناسبة حادث تبشير اهتمت له الصحف جميعا في هذه الاونة . ولو أنه وقع في عهد كانت الظروف السياسية مما يراه القادة المستوزرون يتطلب اتساما في العقائد الدينية لما سمعت غير صوت الحزب الوطني يتردد في جوانب مصر قالت السياسة بعد كلام طويل

«ولو أننا استطعنا أن نوجه نفوسنا في المدارس والكتبات والمعاهد غير هذه الوجهة الدنيا وخلقنا في نفوسهم الايمان بالحق وجذوة المثل الأعلى لمقدسه لانشأنا في جسم هذه الامة روحا قويا بدل هذا الروح الخامل الخامل الذي ما أضعف اليوم ما ينبض . ولكننا مقيدون بماض ثقيل ونفوس ضعيفة روضع سياسي يستعدي الضعفاء على الاقوياء والمتهدمة ارواحهم ونفوسهم على الذين ملأ الله قلوبهم بالحق إيماننا . خُصبنا الله في أولئك جميعا ونعم الوكيل»

* * *

هذا وأشد من هذا قد قيل بمناسبة تنصير فرد . لأن الوفد والاحرار الدستوريين خارج الحكم . ولو أن للعدل أثارة في نفوس هؤلاء الكتاب . ولو أن العقل المتزن الصحيح هو الذي أملي حقا هذا الدفاع على هذه الاقلام لكان من الواجب على هؤلاء الكتاب جميعا أن يناصروا الحزب الوطني في موافقه رد حملة التبشير العامة التي قامت بها انجلترا في سبيل تنصير أم على بكرة ايديها بانزاع الايمان من قلوب المصريين جميعا عندما اتخذت من الاحزاب المصرية المستوزرة ابواقا للتبشير بمشروعات ملنوكرون وتشميرلن وهندرسن .

وتنفذ تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٣٢ . حتى تقضى على السنة الاثني عشرية القائلة « حب الوطن من الايمان » لتحل وثنية جديدة محل هذا الايمان الذي لا قوام لامة دونوهى عبادة انجلترا من دون الله استدرازا للخيرات . وقضاء الثباتات . وتحقيقا للمصالح الخاصة . ولحق على هؤلاء الكتاب أن ينادوا ككناذى الحزب الوطنى بمقاومة سياسة التفاهم التى قضت على آمال أمة وأنزلت بها المحنة الحاضرة التى جعلت صحيفة الجهاد تصبح صحيفة الحق فى عددها الرقم ٢٣ رفربر سنة ١٩٣١ تحت عنوان « السياسة البريطانية عدو مصر اللدود » حيث جهرت بقولها « صحنا صيحتنا فى هذا المكان تحت هذا العنوان أمس بجاهرة بالحقيقة المرة التى طالما حبسناها فى صدرنا مراعاة لما يسميه بعض العاسه (مقتضيات السياسة وترقب الظروف)

« ولكن جبل المصابرة قد طال حتى تجاوز طوله كل معقول . وحتى أفسد علينا جهادنا وأذهلنا عن قضيتنا الكبرى فى صورتها الطبيعية ووضعها الصحيح . . . »

وقالت البلاغ فى عددها الصادر بتاريخ ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٣١ : « وعبدنا تتوارى انجلترا خلف تصريح ٢٨ فبراير . فباسم هذا التصريح قد تدخلت صراحة وجهرأ ضد البرلمان المصرى ؛ وهو ينظر فى قانون من أخص شئون مصر الداخلية . وباسمه تدخلت وتدخل كلما رأت فى التدخل مصلحة . حاضرة أو متوقعة . . . »

وقالت البلاغ فى عددها الصادر بتاريخ ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٣١ : « ان مطامع انجلترا فى مصر لا تقف عند حد درس تلقاه هذا الجيل عملياً وشاهدناه بأعيننا . ومن كان فى شك فليرجع إلى تاريخ انجلترا مع مصر فى تعويضات الموظفين ... فالنفوذ البريطانى والجيش البريطانى قائمان فى هذا البلد لمصلحة

إنجلترا . وخدمة الشعب البريطاني . والتجارة البريطانية . وهذا النفوذ
الملحوس المحسوس يتدخل كلما طاب له التدخل . ويبرز كلما اقتضت مصالحه
أن يبرز . ولن يعجز السياسة البريطانية أنها الزفر من واختيار المناصب . الخ »
فالجهد تعترف بجرعة الوفد . أنها تعترف بأن الوفد أفسد على مصر جهادها
وأذهلها عن قضيتها الكبرى . وأخرج هذه القضية عن وضعها الطبيعي
الصحيح .

والبلاغ تسجل جنایات الوفد وتشير إلى الحل السعيد وتدخل إنجلترا في قانون
المظاهرات والاجتماعات وهو من أخص شئون مصر وتحمّل على رضا النحاس باشا
بالإنصياع إلى إرادة إنجلترا . ثم هي تشير إلى التنفيذ شيء والاستنكار شيء
عند ما تلقى على عاتق سعد تهمة الخيانة بالنسبة لتمويضات الموظفين
ان هذه الآراء هي ما كان من الواجب أن تسود العقول والنفوس المصرية
قبل المفاوضات وتسميم العقول بقبولها قبول العاجز عن كل شيء . والتمهيد
إلى أحط درك من حضيض الضعف ومهانة النفس

هذه الآراء هي ما كان من الواجب أن يتشبع بها المصريون في
الأكواخ والحقول . في الحدائق والقصور . في المصالح والدور . في الخلاء
والاعراء . في السهل والجبل والبيداء حتى لا يفقدوا قوتهم المعنوية التي ضعفتم
جرعة سياسة حسن التفاهم واعتبار الإنجليز . نضبو ما شرفاء معقولين خلال نصف
وعشر سنوات . وهذا ما عبرت عنه الجهاد بقولها « صحننا صبيحتنا في هذا
المكان تحت هذا العنوان أمس مجاهرة بالحقبة المرة التي طالما حبسناها في
صدورنا مراعاة لما يسميه بعض الساسة (مقتضيات الظروف) — سياسة
حسن التفاهم — لكن حبل هذه المصاهرة قد طال حتى تجاوز طوله كل معقول

وحتى افسد علينا جهادنا وأذهلنا عن قضيتنا الكبرى في صورتها الطبيعية
«وضعها الصحيح . . .»

ولقد قالت السياسة ضمن ما قلناه عنها أننا : «إننا مقيدون بماض ثقيل
ونفوس ضعيفة ووضع سياسي يستعدي الضعفاء على الاقوياء . والمتهدمة
أرواحهم ونفوسهم على الذين ملأ الله قلوبهم بالحق إيماناً بحسبنا الله في أولئك
جميعاً . ونعم الوكيل»

وهذه كلمة حق مرقت من فم السياسة وإن هي انطبقت فعلى وصف رجال السوء الذين
حبسوا الحقيقة المرة في صدورهم «مراعاة لما يسميه بعض الساسة (مقتضيات
السياسية وترقباً للظروف) وطال حبل مصابرتهم حتى تجاوز طوله كل معقول .
«وحتى أفسد علينا جهادنا وإذهلنا عن قضيتنا الكبرى في صورتها الطبيعية
وضعها الصحيح . . .» وكذلك تنصب كلمة السياسة على من قال فيهم البلاغ
ما اقتبسناه عن مقالها الافتتاحيين الصادرين بتاريخ «٢٢ و ٢٨ نوفمبر سنة
١٩٣١ وما عنت البلاغ غير سعد والنجاس

ولكننا لانجاري السياسة فيما أوردته بالنسبة للوفد ولا نجاري البلاغ
والجهاد في حملتهما المنكرة على الوفد . بل لابد من أن ندع هذه الأقوال جانباً
وأن نؤيد الرأي بالحجة البالغة . فمن هؤلاء الضعفاء والمتهدمة أرواحهم
ونفوسهم ؟ ومن الاقوياء الذين ملأ الله قلوبهم بالحق إيماناً ؟ وما هو هذا
الماضي الثقيل الذي قيدنا ؟ وما هي حقيقةه والآثار المترتبة عليه ؟ وهل هذه
السبة التي دمع بها الوفديون والاحرار الدستوريون وجه الامة صحيحه ؟

أن الرد على هذه الاسئلة يتطلب حتماً أن تحلل زعامة سعد حتى نزن كفايتها
ونعرف قدر مواهبها . وهذا يدعو إلى تحايل سعد من نواحي قوانين الوراثة
والملاسة والوسط وبحث أتران عقله وعصبه وحواسه وذاك كرتة الامر الذي

يتطلب تفصيلاً إضافياً وأحياناً عن معنى التشكك بأنواعه الطبيعية والعلمية والفلسفية. وموضوعه وأسبابه ودوافعه غمائية ونتائجه وعلاجه بحيث لا نتناول تمحيص سمه الاتناولا علميا حتى اذا ما اردنا ان نكان الرده علميا بحثاً فاذا ما وصلنا الى تكوين فكرة صحيحة عن زمامته انتقلنا الى بحث الامة أيضاً من ناحية قانون الوراثة وناحية قانون الوسط والتطور والرقى والتدهور حتى نعرف أن هذه الامة من عنصر كريم نبيل مقدم يسطع جوهره السامى إذا رفع الزعيم ماعلاه من صدى الزمن وحافظ على هذا السطوع باضرام نار الحمية والغيرة فى الصدور باستمرار ودأب. ونوقن أنها دائماً فى انتظار هذا الزعيم لشد أزره فى جراءة لا تعرف تراجعاً ولا تهقراً ولا تدهوراً إلا إذا تراجع الزعيم وتهقر وتدهور . وهذا يدعو الى القاء نظرة على ماضى الامة البعيد والقريب سواء من الناحية الداخلية أم الخارجية . ما وقع من قادتها أو من الجاليات الاجنبية . أو من سياسة الدول على مر السنين ولا سيما منذ الحملة الفرنسية حتى مؤتمر رلين ومؤتمر الاسناتة فى سنة ١٨٨٢ وأيام مصطفى كابل باشا .

فاذا نحن درسنا الامة على حدة وحكمنا عليها دون أن ندرس تيار الفكرة الدولية والسياسات العالمية وحركات الشعوب وتربية الزعماء فى نشأتهم وعصرهم ومدى خيالهم كان حكمنا على الامة باطلاً ولغوياً . نعم أننا إذا لم ندرس مصر على ضوء القرن التاسع عشر وقد حفل بالانقلابات الشعبية التى تربي فى وسطها بعض ولاية مصر وحكام مصر وزعماء مصر وعادوا اليها ليعيشوا وسط الخمازح وتيارات المطامع الاستعمارية المتعارضة التى كانت تؤدى إلى مطامحات هوت فى بعضها المدافع وكادت تدوى فى البعض الاخر وإذا لم نلاحظ فى هذا الدرس موقف مصر العلمى والادبى والخلقى فان هذا الحكم يكون كذلك الذى يصدره مؤرخ عقيم على نابليون الاول إذا هو لم يعتمد بالثورة الفرنسية الكبرى . بل كانت

مهمة هذا المؤرخ هي دفن الامة المصرية . وهي مهمة شأنها شأن مهمة موسيقى روميو وجولييت الذين دعوا للمزف في ليلة الزفاف ولكنهم ما وصلوا إلى مكان الحفلة حتى أدوا مهمة تشييع الجنازة وعزفوا الاناشيد الحزينة المفجعة .

فاذا نحن وصلنا إلى الحكم على الامة حكما مدعما بالاعتبارات السابقة واستخلصنا الصفات التي يتحتم أن تتوافر في الزعيم الذي يجب أن يباشر به قيادة الامة المصرية فقد حق علينا أن نقيس هذه الصفات بصفات سعد حتى نعرف هل كان رجل الساعة أم لا ؟ وهل كانت الامة عاجزة فاعجزته . أم هو الذي كان عاجزاً فاعجزها عن العمل لاستقلالها وأقدمها عن استرداد حريتها ؟ على أنه إذا كان قانون الوراثة قديم وقانون الوسط أقدم حيث يرجع ذلك إلى عهد الاغريق الاقدمين كما يستدل على ذلك من قصائد « بندار » وكما يستدل على ذلك أيضاً من الحديث الشريف « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » ومن الحديث الشريف « المرء على دين خليله فلينظر المرء من يخال » فاننا لا نرجع إلى هذين القانونين إلا من الناحية العلمية الاصلية التي ذاعت في القرن الاخير

« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت . ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا نجعلنا مالا طاقه لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين »



قانون الوراثة

وأثره في سعد زغلول

ليس في طوق المؤرخ أن يحكم على رجل من رجال التاريخ إذا فاته الاعتماد على قانون التوارث بشقيه . الخاص والعام . وتأثير قانون البيئة . وأثر التشكك في القوة المدركة والمصيبة . أو إذا هو أهمل الرجوع إلى هذه القوانين وهو يستخلص من الوقائع صورة رجل التاريخ . وسعد هو هذا الرجل سواء أحسن أم أساء إلى وطنه . لذلك نرى من الواجب . أن نبسط كلمة بصدد هذه القوانين وأحوال التشكك وأن نطبقها على سعد زغلول والامة المصرية حتى إذا ما انتهينا إلى صورة صحيحة من سعد بروحه وفكرته وعقله وعصبه . وإلى أخرى من الامة المصرية . بحياتها وخلقتها وموقفها الاجتماعي استطرذا إلى بيان أعماله وروايتها وما حاط بها من مؤثرات تحقق معها غرضه أو أخفق .

تعريف قانون الوراثة

التوارث قانون « بيولوجي » يقضى على الالة بأن تكون تكراراً للكائنات الحية التي انحدرت منها . فهو للنوع بمثابة الشخصية للفرد . فبالتوارث يعيش في أعماقنا جوهر لا يتأثر ولا يتغير مهما تعددت التقلبات . وبه تستمر الطبيعة في التوالد لاختراع ذاتها . وتقليد نفسها على توالي الأزمان .

هذان الناحية الجسمانية . أما من الناحية الروحية . فينحصر التوارث في أن ينتج الأصل شديداً به . إلا أن هذا الرأي نظري إلى حد ما . لأن أحداث

الحياة ليست خاضعة لنظام حسابي دقيق . إذ تزداد صور هذه الاحداث
تعقيداً كلما انتقلت بها من عالم الحياة النباتية إلى الحيوانية فالانسانية .
ومهما كانت صعوبة تقدير التشابه فإن تقدير الانسان يرجع إلى ناحيتين :
ناحية التكوين . وناحية المحرك . أى جهة الوظائف المترتب عليها حياة
الانسان الجسدية . وجهة الاعمال التى تألف منها حياته الفكرية .
فهذه اثنان الصورتان اللتان تتشكل فيهما الحياة الانسانية خاضعتان لقانون
التوارث ؟ وإذا كان فالى أى حد ؟

لقد درس العلماء هذا الموضوع من الناحية الجسدية درساً عميقاً . أما
من الناحية الفكرية والنفسية فانهم لم يستطيعوا التعمق فيها حتى الآن .
ولذلك رأيناهم يركنون في بحثها إلى المشاهدات والتجارب . ولما كان
الشأن الأكبر في تقدير سعد ووزنه هو من الناحية النفسية . وكان انتقال
الخصائص الروحية عن طريق التوارث مرتبطاً تمام الارتباط بالتسلل الجسدى
من جهة أحداثه وقوانينه ونتائجه وأسبابه . فقد تختم علينا في هذا المقام أن
نشير إلى أن الاجماع قد قام على أن التوارث الجسدى يشمل انتقال عناصر
الجسم ووظائفه . سواء أكان من ناحية تكوينه الداخلى . والخارجى أم
من ناحية أمراضه ومميزاته وتغييراته المكتسبة دون العارضية فهل الامر
كذلك من الناحية النفسية ؟

يجمل بنا قبل أن نخوض هذا الناموس النفسى أن نعرف ممن انحدر سعد
وماذا كانت غرائز منبته . وصفاته وخلقه وطبعه وتطواراته .

عن محمد سعيد

ولد سعد زغلول في حكم سعيد عام ١٢٧٧ هجرية بناحية إيبان التابعة
لمديرية الغربية . من الشيخ ابراهيم زغلول . وأقارب سعد وأقارب سعد على
أن الشيخ ابراهيم كان صمداً رغم فقره وكان هكذا في عهد سعيد والاعمال .

يوم كان العمدة اداة تحقير للذات وللخلاق . ومن ارتضى أن يلبس في سهولة
هذا الرداء البشع تيسر الحكيم على قدر نفسه .

كان الشيخ ابراهيم زغلول رحمه الله كما وصفه لنا المرحوم عبد الله مك زغلول
طويل القامة . مليء الجسم . عريض المنكبين . واسع العينين . حاد البصر . فصيح
اللسان . كبير الرأس . حاضر الذهن . شهي الحديث . عف عن الثثرة . فكاه في
تدبر وتبصرة . يدور مع الزمن ويلعب . وبراوغ وغان الثعالب . لا يحف له .
ولا يستريح قلبه . ولا تسكن حركته . وانما في رصانة وثؤدة تبلغ حدا طيلاء . إذا
سأله صديق أو قريب لا يسمع وإنما يجمع . لا يعرف بينه وبين الموزوع سلاسة
القياد . ولكنه شديد العناد . عسر الانقياد . يتناقى عمله والغيث الصيب . حتى في
الارض الطيب . ترى له في كل وقت . عادة ممت . ونزوة شيطان . تثير الجنان . وتطارد
الحنان . إذا أنت احسنت إليه ضاع احسانك كالخط على بساط الماء والرقم في بساط
الهواء . وإذا أنت ظللته بنعمة اشتغل بسكرها عن شكرها . وإذا أسأت
إليه دان بعد طماحه . ولأن بعد جماحه . فهو أمام الضعيف يتمنع . وفي خدمة
القوى يتطوع . ويستأسر لصاحب السلطان . ويعتأسد أمام الجبان . ولقوى النفوذ
يتذلل . وعلى الضعفاء يتدلل . فتجده أمام المأمور كار جوحة الموالد . دائما في
نزول رصعود . وقيام وقعود . قد حذق الانحناء في السلام والسجود . يقبل
الارض بين يدي الخاك واليه يخفد . فانه يهم بأن يصلي الفرض أو يتعبد . ولا يحسن
الابتسام إلا إذا جلد . ولا يزداد نشاطا وغيره إلا ساعة التسليم . ولما ارتفعت حرارة
المسايطعات ادرجة الا كبار والعظيم . ولكنه في الخلاء يضطرب ويضطرم وفي
المراء يحتد ويحتدم . ويفور غيظا . ويتميز حقدًا . ويتزبد حنقا . واليدان حرتان
مقيدتان . وجمرة الغضب في صدره تلتهب . فلا ينطلق لسانه ولكن همته
تضطرب وتضطرك اسنانه ورقبته تلعب ويغالب نفسه على الاغضاء . ويتلوى

تلوى الحية في الرمضاء . ولا ينور وجدانه . ولا يتأسك عند الارزاء . ولا يتمسك عند الصبر والعزاء . وإذا دطاه المظهر لبي بييم الماء لشراء الاماء . وإذا فقعت غلته . زادت غلته . يرضى من الفضل . بالقول للفصل . ومن البر الجزيل . بالكلام الجزل . لا يعمل في مجاهدة هواه . ولا يركب الصعب لتحقيق مناه . وإنما يقدر إذا قدر . ولا يبسط في التقوى وإنما يقدر . لا شبیه له إلا المصفوران أنت تركته فات . وان قبضت عليه إمامات . فهل تأصلت في نفس سعد غريزة الاستكانة والقلة . وتوافر فيه التجرد من فضائل البطولة والاقدام . وتنزه عن العزة والكرامة . والخدمة في موطن الخدمة . والصلابة في مواضع الصلابة ؟ وهل فاضت في أحماقه بناييم المجد الطبيعي . وتأصلت فيه نزعات الشهوات الممقوتة . ودفعات المطامع الخبيثة . فكان أداة سهلة الانقياد . ومعولاهدما في يد الاقوياء . وسلاحا بحدين في يد الضعفاء . ان قبضوا عليه لتبنيته في صدر المدومزق أيديهم وهدر دماءهم ؟

كيف نحكم على سعد ؟

لا يتسنى لانسان أن يحكم على سعد إلا اذا عرف أولا وقبل كل شيء هل هو رجل سياسى أو عادى ؟ . لأنه اذا كان من الجائز إزاء الفرد العادى أن نلجأ الى الطريقة التحليلية في بيان أثر التوارث في النفس . فن المستحيل تطبيق هذه الوسيلة على اطلاقها بالنسبة للرجل السياسى . لان رجلا من القادة . أو زعيما من الزعماء لابد وأن يعمل بمختلف مواهبه معاً وفي وقت واحد . لا انتاج عمل معين . وبمعنى آخر . ان رجلا سياسياً لا مناص لجميع قواته من أن تشترك في اخراج أى عمل يقوم به لان نتيجة أى جهد من جهوده المنفردة لا قيمة لها إلا اذا عاونت في الثمرة النهائية لكده . واذن فالغرض الذى يدركه من جده ما هو إلا انتاج لوسائله المشتركة

ان المفكر أو العالم يستطيع أن يكون معزول عن المجتمع وهو صالح في أرقى طبقات التفكير واعمالها . دون أن يشعر بشيء . أو يؤدي تفكيره إلى إنتاج أى شيء . والفنان يمكنه أن يتصور أنه ينعم ويلتذ بأجل وأجل الاحلام . دون أن يتأثر بالعالم المحسوس . أما الرجل السياسى فيشترط فيه توافر الذكاء والقادر على استيعاب الخاص والعام . والحقيقة والمجاز في وقت واحد . وإلا فإنه ان عجز عن التعميم كان قصير النظر . لانه يحصر عمله في التقليد والمعادة . كذلك نرى أن السياسى ليس في مقدوره كالعالم والمفكر والفنان أن يكتبنى بما يصل اليه من النتائج العامة التى يستخلصها هؤلاء من أبحاثهم لان مهمته تقتضى بطبيعتها أن يفصل فى أى مسألة خاصة . معينة . ولذلك وجب عليه أن يلهم بالجزء والكل . وأن تؤدي أفكاره إلى أعمال . وهذا مايفرض على السياسى ألا يكون نظريا مضاربا . وأن يكون على العكس رجلا يتخذ من النظريات وسيلة لتحقيق العمل الذى هو غايته . وليس فى الامكان ذلك إلا إذا كانت أرائته حديدية دءوبا تمتاز بالاقدام والشجاعة . والثقة بالذات . والقدرة على التأثير فى المستضعفين والمترددن والمءاجزين .

فالخصائص التى يجب أن يتمتع فى الرجل السياسى لتعمل فى وقت واحد وفى السرعة والطأة نينة والثقة التى تتطلبها لحظة من اللحظات . سواء لحظات الهدوء أو الخطر . هى إذن موهبة الملاحظة التفصيلية السريعة البعيدة الفور . وحضور الذكاء الامينة التى تذكر فى دقة وفى غير تردد نتائج النظريات وسرعة الخاطر التى لاتؤسها الظروف المباغمة . والارادة الصلاب . والقوة الجسمانية التى هي أساس كل عمل من الاعمال .

ولقد دلل التاريخ على أن جميع الصفات الروحية تنتقل ككها أو بعضها بالتوارث . وإذا قلنا بعضها فما ذلك إلا أنه قد يحصل أن الوحدة الاصلية تنكسر عند انتقالها إلى الخلف فلا ينجى منها غير شطر بسيط .

ولنضرب مثلاً واحداً بانتقال نشاط الارادة . فانه ككل نشاط روجي آخر يمكن أن يفتقل بالتوارث . فقد لاحظ فولتير ذلك عند مدارس آل جيز حيث قال : « ان الجسد . ذلك المولد الخلقى . ينقل الصفات من الاب إلى الابن خلال عصور . فلقد كان آل بيوس شحا . لانتثنى لهم عزيمة . وكان آل كاون قساة القلب دائماً . أما سلالة آل جيز فكانوا جميعاً مقادير بواسل . هامين بالعمل دواماً . فياضين باوقع كبرياء . وأفصح عجرفة . مع تأدب لاحد الجاذبية وخداعة فالجسيم . ابتداء من فرانسوا ده جيز إلى ذلك الذى ذهب من تلقاء نفسه إلى نابولي دون أن يدعوه الشعب وأقام ذاته ولى أمر عليه . كانوا فى صورة برزت فيها الشجاعة ورجاحة العقل لحد ممان مستوى الرجال

سجيز من الرأس إلى العقب . وكذلك
لست أن قامتهم . ستة أقدام . أما
ميون والوقوفات فواحدة . (راجع

الواجب إذا نحن درسنا التوارث فى
المركز السامى الرسمى شارة جدارة
كون عمل الرجل مقياساً لجدارته
فان مجد الآباء والاجداد وعلاقات
إلى حد بعيد وقد يكون كل شىء فى
نح النبلاء فى انجلترا وفرنسا وتاريخ

سياسيا ؟ أن هذا يتطلب أولاً البحث فى النتائج

النفسية لقانون التوارث وقانون البيئة وثانياً استقصاء عمق تشكك سعد وتأثير هذا التشكك في قوته العقلية والمصيبة

النتائج النفسية لقانون التوارث

والآن يجدر بنا أن نبحث عما إذا كان جميع الاشكال التي يتشكل فيها النشاط لروحي تنتقل بالتوارث في درجة واحدة أو من الممكن ترتيبها حسب نظام معين من ناحية قوة انتقالها وضعفه . واجتناباً للخوض في النظريات العديدة المعقدة نقول أن جميع أشكال النشاط تنتقل على الترتيب الآتي .

(١) ينتقل جزء عظيم من الغرائز التي يتألف منها مجموع الحياة النفسية . ولقد اختلف العلماء في تعريف الغريزة . ولكن هناك تعاريف ثلاثة توضح المفلاسفة والطبيعيون على إياها أدق التعاريف .

فاولها يقول : أن الغريزة حمل يقرب من أن يكون آلياً لا يدخل للإرادة فيه . ومن الراجح أنه خلو من التمييز . وتقوم به الحيوانات فصيلاً إلى الوصول إلى غرض معين باستخدام جسمها وأخلاقيها

ويقول التعريف الثاني : أن الغريزة مرادف للرغبة والميل والنزعة ولهذا ينكلمون عن غريزة الخير والشر وغريزة السرقة والقتل — الخ

أما التعريف الثالث فإنه يفهم الغريزة على أنها اسم يشتمل على جميع الاحداث الروحية التي تقع في داخلية الحيوان . بما فيها جميع أشكال النشاط الفكرى التي انحطت عن صورة نشاط العقل الانسانى . وهذا راجع إلى الزعم بأن الحيوان يتمتم بحاسة الذكاء .

على أنه قد يكون هناك تعاريف أدق من تلك . فقد قال هارتمان « أن

الغريزة عمل يتفق وغرض وانما دون تمييز هذا الغرض . وقال دورين «أنها العمل الذي لا تستطيع انماه إلا بتعاون الماديات مع مؤثر خارجي في المجموعة العصبية ولا دخل لا رادتنا فيه »
والغريزة أما مركبة أو بسيطة . فالمركبة هي مجموعة غرائز بسيطة والبسيطة هي إحدى الماديات

أما الفارق بين الغريزة والذكاء فيمكن تلخيصه فيما يلي .
(أ) الغريزة طبيعية . أي أنها خلقت في الانسان قبل أي اختبار ذاتي أما الذكاء فينشأ في بطن وبالجمع بين التجارب وتكديسها .
(ب) تبلغ الغريزة حد الكمال بوجه عام عند الخلقة . أما الذكاء فإنه يتعزز ويحرب . وينفوت عليه الغرض . ويسقط في الخطأ . ثم ينهض باصلاح

من هنا يكون انعدام التمييز .
ولا الوسائل التي تستخدمها في
يلوح أنه معتاد بالفكرة ولاشيء
تطور ولا تتقدم ولا تتأخر ولا
مو ويضم . ويكسب ويخسر .

ت مطلقة فان تبدلها يقع على
أن بقاءها هو القاعدة وأما التغيير
فقاعدته التغيير والتبديل .
يشتت أداة في مرونة العقل . فهذه
الظروف ولا أن تلابسها كالعقل

الذى يلين ويتغير فى آلاف من الطرائق . ولكن التجارب قد دلت على أن الغريزة مبرنة لحد ما عندما تؤثر فيها مؤثرات ذات بأس وسلطان ثابت . وهناك سببان هامان يحدنان هذا التغير فى الغريزة وهما الوسط والمادة . فالجوع والارض والغذاء والاختطار القاسية المحيطة هى المؤثرات التى تخضع لها طبيعة الانسان وتتمكن من تغيير غرائزه . وهذه التغيرات أو الغرائز المكتسبة تفر فى النفس وتنتقل بالوراثة (راجع التوارث النفسى لتيوفيل ريبو ص ٢٥ وما بعدها ومشكلة الحياة لبوردو)

فاذا اتبعنا القاعدة الخاصة بالغرائز الاصلية الطبيعية كان لنا أن نقول ان مجموعة غرائز العمدة ابراهيم زغلول قد انتقلت الى ابنه سعد الله زغلول . ولقد تقدم بيان غرائز الشيخ ابراهيم ضمن وصفه . ولا يمكن أن تكون زاهة هذا الوصف موضع طعن لما كان بين عبد الله بك زغلول وسعد الله زغلول من جفاء . لان أخلاق سعد وأعماله وأقواله تؤيد هذا الوصف المنه تأييد واذا أردنا أن نطبق القاعدة الخاصة بالغرائز المكتسبة وجب أن نبحث فيما اذا كان قد طرأ على ابراهيم زغلول ظروف وأحوال وأهوال بدلت غرائزه الطبيعية وأقرت فى نفسه غرائز جديدة مكتسبة .

لقد بقي ابراهيم زغلول فى بلدته صغيراً وطاش عمدة كبيراً . انخفضت غرائزه الطبيعية عصره الاستبدادى . عصر عباس وسعيد واسماعيل . وفضلاً عن هذا فإنه لم يشترك فى واقعة من الوقائع الحربية التى بقى رجال مصر يذكرونها ويتحدثون بعظمتها . ولم يعرف من المصريين هؤلاء القواد الذين تنقلوا بين الجبال والوهاد . ومجد الحروب من حولهم يطأطأء الرأس أمام مجدهم الطبيعى . والجلال ينفذ اليهم فى خجل ليس تجدى التقرب الى جلال نفوسهم ، ولم يعيش الشيخ ابراهيم

واقفات خلف ربي القلاع والحصون كأيام ذلك المعاهل . ولم يسد فرنسا صمت كذلك الذي أطبق على هؤلاء الذين كانوا يتحدثون عن الموت إبان حكمه . ومع ذلك فالقلوب كانت مفعمة بالفرح . فياضة بالحياة . مليئة بدقات طبول الحرب . أما الميرون فأنها لم تعهد شمساً أظهر وأنقى من تلك التي جففت كل هذه الدماء . حتى لقد قيل إن المولى قد خلقها خصيصاً لهذا الرجل . فلقبها الناس بشموسه في معركة « استرليتز » . ولكن الواقع هو أن نابليون خلق تلك الشموس بمدافع الدائبة على الانطلاق والتدوية حتى أن السحب لم تكن بمستطاعة أن تتجمع إلا في الأيام التالية للمعاركة .

« فهذا الهواء الذي تشبعت به تلك السماوات النقية التي بذغ في كبدها المجد الساطع . وتلاً في الحديد اللامع . هو الهواء الذي استنشقه أطقال ذلك العهد الذين أيقنوا أنهم أعدوا ليكونوا فرابين في مذبحه للام خملهم يعتقدون أن الجنرال « مورا » معصوم من العطب . منيع لا تناله قذيفة بعيد لا تدركه رصاصة . وإذا مارأوا الامبراطور يمر على القنطرة والرصاص من حوله يتهاطل في صفيح وتدوية . قدروا له الخلود في عالم الاحياء . بل بلغتهم عقيدة نكران الذات أن فرضوا الموت لزما في الممارك الدموية . ذلك بأن الموت كان في ذلك الحين . حلوا مستعذبا جميلا رائعا في ثوبه القرمزي الساخن لا يلوح أمامهم إلا كالأمل سواء بسواء . فإذا هو حصيد السنابل الصغير التي لما تبلغ سن الشباب فما ذلك إلا لانهم قد بلغوا حقا سن الشيخوخة . فنظر الموت الذي لا يخطيء في تقدير اعمار الرجال الذين أدركوا هذه السن . فالشاب كهل إذا مات في الميدان . ولذلك كانت جميع المهاد الفرنسية « ردها » . وجميع النعوش روساً . حتى انك ما كنت تهتفي فرنسا على شيخ . فاما جثث هامدة وأما انصاف آلهة »

وأما الثورة للحق والعدل والقانون أو للمعظمة والمجدى فتوارث فأننا نستطيع أن نستخلصه من كلمة عن أبناء الثورة الفرنسية الذين حاربوا صفوف جيوش نابليون . وظروف هؤلاء لم تكن كظروف الشيخ ارهم زغلول العمدة . كما أن ظروف أبنائهم لم تكن كظروف سعد زغلول أثناء العمل وبعده

أبناء الثورة الفرنسية

« وضع الامهات الفرنسيات جيلا قوى المراس . نحيا عصبيا . بينما كان الآباء والاخوة يحاربون مع الامبراطور في المانيا . ولقد دخلت الامهات هذا الجيل خلال ممركتين . فتربى في المدارس على نفقات الطنبور . ونقر الطبول . آلاف مؤلفة من الاطفال . كانوا يرقبون بعضهم البعض بنظرات حليها الحزن ورصعها الكآبة وهم يحاولون قتل فضلاتهم الغضبية . أما آباؤهم فكانوا يظهرون بعتة ليرفعوا أبناءهم إلى صدورهم وقدوشحها الذهب . وسطعت الاومحة من فوقه . ويضعوهم بين أذرعهم . ويضعوهم في حنو وشفقة داخل مهادهم ثم يغطون صهوات جيادهم مولين وجوههم شطير الميدان .

« كان رجل واحد يعيش في أوروبا وتنتد . أما باقى الخلائق فكانوا يبدلون قصارى الجهد في سبيل امتلاء رئتيهم بما استنشقه ذلك الرجل ثم تنفسه . ولقد كانت فرنسا في كل عام تهديه ثلثمائة ألف سباب . ولعمرك إن هذا المدد كان الحزبة التي تدفع لقيصر . وإذا لم ينس له الحصول على هذا القطيع عجز من اقتناء أثر حظه . بل انه كان الحرس الضرورى له حتى يتمكن من اجتياز أوروبا .

« لم يمر بفرنسا في أى وقت سابق ليال تأرقت فيها الجنون كالي هذا الرجل . وما انقضت عليها أيام أطل فيها على العالم شعب من الايامى والشكالى وهن

واقفات خلف ربي القلاع والحصون كأيام ذلك للعاهل . ولم يسد فرنسا
سمت كذلك الذي أطبق على هؤلاء الذين كانوا يتعهدون عن الموت إبان
حكمه . ومع ذلك فالقلوب كانت مفعمة بالفرح . فياضة بالحياة . مليئة بدقات
عقول الحرب . أما العيون فأنها لم تعهد شمساً أظهر وأنتى من تلك التي جففت
كل هذه الدماء . حتى لقد قيل إن المولى قد خلقها خصيصاً لهذا الرجل .
فلقبها الناس بشموسه في معركة « استرلتر » . ولكن الواقع هو أن نابليون
خلق تلك الشمس بعدافعه الدائبة على الانطلاق والتدوية حتى أن السحب لم
تكن بمستطبعة أن تتجهم إلا في الأيام التالية لمعاركه .

« فهذا الهواء الذي تشبعت به تلك السماوات النقية التي بذغ في كبدها
المجد الساطع . وتلاها فيها الحديد اللامع . هو الهواء الذي استنشقه أطقال ذلك
العهد الذين أيقنوا أنهم أعدوا ليكونوا قرابين في مذبحه للام خجلهم يمتقدون
أن الجنرال « مورا » معصوم من العطب . منيع لا تناله قذيفة . بعيد لا تدركه
رصاصة . وإذا مارأوا الامبراطور يمر على القنطرة والرصاص من حوله
يتهاطل في صفيير وتدوية . قدروا له الخلود في عالم الاحياء . بل بلغت بهم عقيدة
نكران الذات أن فرضوا الموت لزما في الممارك الدموية . ذلك بأن
الموت كان في ذلك الحين . ملوا مستعذبا جميلا رائعا في ثوبه القرمزي الساخن
لا يلوح أمامهم إلا كالأمل على سواء بسواء . فاذا هو حصيد السنابل الصغير
التي لما تبلغ سن الشباب فما ذلك إلا لانهم قد بلغوا حقا سن الشيخوخة . ونظر الموت
الذي لا يخطيء في تقدير اعمار الرجال الذين أدركوا هذه السن . فالشاب كهل
إذا مات في الميدان . ولذلك كانت جميع المهاد الفرنسية درهما . وجميع
النعوش روسا . حتى انك ما كنت تعترف في فرنسا على شيخ . فاما جثث هامدة
وأما انصاف آلهة »

وبعد أن سقط نابليون « جلس على انقاض العالم شبيهة حزينة مفكرة .
 خجيم هؤلاء الاطفال كانوا نقطا من دماء متقدة محرقة طفت على وجه الارض .
 أنهم ولدوا في الحرب والحرب ، فر باخلامهم خلال خمسة عشر عاما صبور
 تلوج موسكو . وشمس الاهرام . وإذا كانوا لم يبارحوا مدنهم . إلا أنه قد
 التي إلى رؤسهم أن كل حلقة من حلقات الدافع عن هذه المدن تؤدي إلى
 عاصمة من عواصم أوروبا . فانسم في أدمنتهم عوالم متعددة . ولكنهم
 كانوا ينظرون إلى البطحاء . ويرفعون رؤوسهم إلى السماء . ويدبرونها في
 المارق والمنعطقات فلا يجدون إلا فراغا . »

وساد السكون . « ولكنهم مع ذلك قد رأوا رجلا يصعد المنبر . ويده
 عقد أرم بين الملك والشعب . فاحاطوا به في صمت . وأخذ هذا الرجل يقول
 « إن المجد شيء جميل . وكذلك الطمع في الحرب . ولكن هناك ما هو أجل !
 هناك ما نسميه الحرية »

« فرفع الاطفال هاماتهم . وذكروا اجدادهم الذين تسلموا عن الحرية
 فكان في هذه الكلمة ما خفت له قلوبهم كما تخفق للأمال الحائرة أو ما هو أبعد
 منها . وأخذتهم هزة عنيفة عند سماع هذه الكلمة . ولكنهم شاهدوا في
 الطريق أثناء عودتهم ثلاث سلات بها ثلاثة صبية . اقتادوهم في هذا الشكل إلى
 « كلامار » . وكل جريرتهم أنهم نطقوا بهذه الكلمة في صوت جموري فعلت
 شفاه الاطفال ابتسامة عجيبة أمام هذا المنظر المحزن .

« ولكن خطباء آخرين صعدوا المنبر وعددوا هلنا نة فح المطامع ونادوا
 بأن المجد غالي الثمن . وابانوا فظائم الحرب . واستمرراطويلا ينددون بالاوهم
 الانسانية التي كانت تتساقط من حولهم تساقط أوراق الشجر في الخريف . »

والجميع يصغون ويفركون جباههم بأيديهم . وكأن حمى شديدة أيقظتهم . «
« وقصاري القول إليهم ترقبوا الظرف المناسب للانفجار . وكان ذلك عندما
اجتازت أفكار «بيرون» وأراء «جيتيه» حدود فرنسا . « ذلك بأن صوغ
أفكار عامة ما هو إلا تحويل ماح البارود إلى بارود . وثقل امتص العقل
الساخر اللاذع . الذي تحلى به «جيتيه» العظيم . عصير الفاكهة المحرمة كما بمنص
الامبيق ربح الاظهار . حتى خيل لمن لم يقرأه أنه جهل كل شيء . وحملت
الفرقة عباد الله البؤساء على اجنحتها إلى هاوية الشك العام كما تحمل الرياح
الآتية »

(راجع الفصل الثاني من اعترافات موسيه)

فهل الظروف التي اكتشفت الشيخ ابراهيم زغول كانت تؤدي به إلى أن يغضب
للكرامة والشرف أم كانت من شأنها أن تغير من غرائزه كما غيرت ظروفه
الثورة الفرنسية وظروف عروبات نابليون من غرائز الفرنسيين؟ وهل كان لها في
نفس سعد أيام حملته ما كان لها في نفوس أبناء فرنسا؟ إن الشيخ ابراهيم زغول
لم يرفع عينه عن الآلة التي كانت تكرهه على جميع الضرائب ولم المشور . ولا عن
السياط التي سخره في سائح جاود العباد حتى ينقذ جلد نفسه . ولم يترب سعد
في طفولته على نهات الانتصارات والاقدام والبطولة حتى تبرز فيه غريزة
الابطال فيحق له أن يدعى أنه أين الثورة الذي يجب أن يقود الثورة ويحكم
ليكون أبا الثورة على القديم والثورة للاستقلال والحرية وتكوين الوحدة
القومية وأنما في سعد ابن العمدة وماش عمدة يرهب ولا يستحي . ويخاف ولا يعوى .
ولقد ظهرت آثار ذلك في تردده ونشككه وفي استخدام سلطان كان كافياً لأحياء
أمة ميتة فاجهر به على أمة حية . بعد أن سخره في مصلحته . . .

مواهب الملاحظة

بالحواس الخمس

ان مواهب الملاحظة بالحواس الخمس تتسلسل بالتوارث مع مختلف صور النشاط المرتبطة بها ارتباطاً مباشراً . ويظهر أن هذه القوة كانت قد انطقت في الشيخ ابراهيم زغلول بحكم الوسط المصري . وإلا فلماذا كانت السبل غير ذلك لو وجدنا سعداً قد حقق حاسة التعمق بنظراته لسبر غور الأسرار الانسانية النفسية ولعرف الدفين في القلوب التي أحاطت به أو استند عليها في بعض المواقف . ولكنه كان ياتي بنظراته على الشخصيات من بعده فاذا بهذه المفارقات تتراعى في غير انساع ولا صمق . ولذلك فلما كانت نظرات خائبة لم تأخذ إلا صورة ما ارتسم على الوجه دون أن تنفذ في غير شفقة الى الأعماق لتنتقل منها صورة طبق حالة النفس . حتى يقارن بين المصورتين ويصدر حكماً شاملاً على الشخصية التي فحصها كي يبنى على أساس هذا الحكم علاقاتها ويحدد طريقة العمل معها وقاته .

العواطف

أما العواطف فانها تنتقل في قوة اذا كانت بسيطة . أي خاضعة للجسم . وتنتقل في ضعف اذا كانت مركبة . أي لها ارتباط بالروح . أما اذا كانت خاضعة لتكويننا الحسدى والعقلى مما أي اذا تألم منها ما يسمى بالخلق . فان انتقالها يكون وسطاً بين هذا وذاك .

وتتجلى نتيجة وراثه العواطف في شكل مزدوج . فتارة نجمل من الممكن انتاج عواطف مركبة عن طريق تكديس العواطف البسيطة . وتارة أخرى تنجح الى الماضي ونحن اليه فتكشف عن جوهره بدافع عداء الوسط المحيط .

ذلك بأن في النفس غرائز وحشية وميولا رحالة ورغبات دموية جامحة لا يقهرها
الزمن ولا يخضعها. قد اخنفت في قرارة كيانتها حية . ولكن مغمضة الطرف .
وعلى أهبة التجلي دائماً .

ولكن أثار سعد الكتابية لا تمكننا من معرفة عواطفه . لأنها جميعاً
متضاربة . متباينة حشوها التردد والحيرة والزعزعة والتشكك . وكل هذا
الهرع راجع طبعاً الى الجوهر الفزع الرعيد الذي انحدر منه سعد . ويكفي
لتولد الرعدة أن سميد باشا كان يعدم شيخ البلدة لتستره على نقر القرعة . فإذا نحن عثرنا
في صفحة من أقوال سعد على آية وطنية ، عثرنا في أخرى على عشر آيات مروق
وذبتة أو تراجع عن الصراط المستقيم ونكول وحنث عظيم .

أما ميوله الدموية الرحالة الجامحة التي كنت في نفسه بحكم الغرائز فانها لم
تقو على رفع مافوقها من الرماد في أدق المآزق الحرجة والظروف المعسبة
التي عصفت زعامته وأبعدت الحكم والسيادة عنه ولكن هذه المبول ظهرت ، إنان
جبروته وسلطوته ساعة إذ كان يقهقه وقت هجوم الغوغاء على خصومه السياسيين
المزل لهدموا دورهم وبحرقوا بيوتهم وينهبوا أموالهم وينتزعوا أرواحهم دون
أن يعقب على هذه القهقهة إلا بقوله : «أريدون أن أحمي خصومي ؟ » ولقد
كان له الحق في ذلك إذ لم يستكن في أهماقه غير غدر الوحشية دون اقسامها
وجراتها . ولعمرك انها حالة مناقضة لطبيعة الانسانية تلك التي لا تثير الوحشية
ساعة السكارة وانما تهتاجها وقت النعمة !!

وفي الحق أن هذا هو مسلك الممثلة . يقبم في عقر داره ساعة نزول
المصاب . أو يهطم إلى المأمور يتمسح بالاعتاب . وعلى المنصب يسبل للهاب .
وإذا ما قدر غدر . وعبس للاهلين وبسر . وإذا كان سعد لم يكن في ظاهره
برياء وحشياً متجرداً من الرحمة والانسانية إلا أنه كان رجلاً قاسياً على أهله
ووطنه . لا يعرف الدعة والبشاشة إلا لعدوه . ولا ينسلك الحب في قلبه إلا

المادة . وإلا للمنصب . وأما من ناحية العواطف والاحساسات فلا يقل سمع
عن والده . حقد ومحابة . ولذلك فقد كان ثمن بطولانه دهورة الامة وتحطيم
قوتها المعنوية لسنوات عديدة وهذا ما لا يمكن أن تتسامح فيه الامة والاجيال

في الذكاء

ينتقل الذكاء الفطري بالوراثة . ولكنه كلما نما بالا اكتساب ازداد انتقاله
بالتوارث صعوبة . إلا أنه ينتقل على أى حال إلى حفيدا . والشيخ ابراهيم
زغلول كان حاد الذكاء . ولولا ذلك لما عين عمدة في تلك الاوقات التي تحتاج
إلى ذكاء مفرط ومهارة ونعومة ولين ليبقى العمدة في منصبه يوما أو بعض
يوم . فكيف بمن قالوا أنه بقي عمدة عهداً طويلاً ؟
وهنا يجدر بنا أن نلاحظ أن عمل الذكاء دائماً ما يتغلب على عمل الغريزة .
وهذا أثر من آثار المقاصة . فكل عضو تزداد قوته تؤدي هذه الزيادة الى
اضعاف قوة عضو آخر . فذكاء سمع الوراثة والمكتسب قد أضعف نفسيته
وأفقدته ميزات كثيرة سنعرفها فيما بعد كما سنعرف علمياً عند الكلام عن التأثير
الديني وتحول سمع الى مذهب الشافعي أن هذا الذكاء المفرط كان سبب ضعفه سياسياً
وفي هذه الحالة ترى التوارث يقوم بمهمتين . فبالنسبة للذكاء نراه
عاملاً على الاحتفاظ بما يكسبه كل جيل من الاجيال . ويكسبه ليكون هذا
المكتسب وسيلة لكسب اخرى أوسع نطاقاً كالبح المركب . يزداد رأس ماله
فيزداد ربحه على التوالي . أما بالنسبة للغريزة . فان التوارث يعمل على استئصالها
إلى الضعف . ويضمن استمرار وقوع هذا الضعف على توالي الازمان . وبما
أن قانون التوارث يجعل استرداد ما تفقده الغريزة متعذراً فإنه يمهّد للحظ جديد
من خسارتها وضعفها . وأذن فقانون الوراثة يؤدي بحركة واحدة إلى
نتائج متعارضة .

ولهذا رأيت في سمع أن ما اكتسبه عن والده من الذكاء الفطري فاستلوا قويا بفضل تربيته والبيئة التي تعلم فيها . وهي بيئة اشتملت كل الاختلاف من الناحية العلمية والأدبية والفنية عن بيئة أبيه

الطاعات والذكا

لقد اختلف العلماء فيما له أساس بانتقال الماداء : الذكاء الوراثي ولكن يكفينا أن نقول هنا أن سمعاً كان ينسى في يومه من عمله في أمسه . وكانت تحو له اليدوية ساعة المدهيات والنوازل والبوائق وتطاحن الاغراض وتنازع المطامع . وهذا واضح في أعماله وأقواله . كما هو واضح في الاضطراب البارز في جميع المراحل التي كان يبتكرها ساعة المأزق . فخذ مثلاً : « هل عندكم تجريدة ؟ دلوني على السبيل ؟ » مع أنه تمسك بحق مصرى السودان قبل ذلك بقليل . ثم التنفيذ شيء والاستنكار شيء آخر . والفضيلة المصرية دولية . ولا مجلها مصالح لا تتعارض مع الاستقلال وسننفسل ذلك باب التشكك .

قانون الملايسه

وإذا كان لانزع في تأثر الجنين بغرائز الوالدين إلا أن هناك من المراحل ماله من السلطان القوى المعرقل لقانون التوارث بعد الوضع . وقد حاول « هيكيل » أن يربط هذه المؤثرات تحت عنوان عام هو « قانون الملايسه » ورد هذه المواصل إلى الغذاء والهضم باوسع المعاني (راجع تاريخ الطبقة الطبيعية لهيكل جزء ٩) . وهذا ما سنشير اليه عند بيان حياة سمع بالأزهر ويكفي هنا أن نقول أننا دائماً ما نشهد مصرع الحرية والاختيار في صورة أبشع مما يمكن تصورها عندما ننظر إلى هذا النضال المستمر : أممنا بين الاخلاق الفردية والاخلاق النوعية . أي بين الشخصية والتوارث . ولكن الناس

يأبوا التسليم بذلك وينسبون كثيراً أن الوراثة سلطاناً على تكويننا وأخلاقنا. أقرون من نفوذ المؤثرات الخارجية مادية كانت أو أدبية. ولين ينسبوا ذلك كل الحق إذا هم لم يهتموا على التجارب. واذن فالوراثة قد قتلت الحرية في أهمها. ولذلك كان جباراً مع الضعفاء. وأداة ذليلة للهدم في يد الأقوياء. وناريخه فياض بالأدلة القاطعة على صحة هذه الحقيقة التي لا يأتينا الجاهل من خلفها ولا من بين يديها. وسنفصل هذه الآيات المعجزات تفصيلاً وافياً فيما بعد.

قانون البيئة

أثره في التوارث الخاص

لقد دعى أخيراً علماء الطبيعة والنفس والاجناس والتاريخ بنفوذ الوسط الطبيعي في التوارث. يؤثر الجو والهواء والأرض والماء والنظام الغذائي. وطبيعة الانسجة والعصبونات وكل ما هو طبيعي في جسم الانسان وكيف لا تصل الاستجابات العنيفة إلى مواطن الضمير وانما تدخل بلا انقطاع في الحسب لتعمل بمعاونة النمو على تكوين ما يسمى بالطبع والخلق ولا حاجة بنا إلى شرح ذلك فله كشمه الخاصة.

انما نفوذ البيئة فله كمثل سلطان الطبيعة. لان التربية ما هي الا وسط أدبي ينتهي إلى أثر يخلق في الانسان عادة. بل عادات. ذلك بأن معنى التربية الصحيحة ليس في دروس الآباء والامهات والاساتذة فحسب. وانما هو أيضاً في العادات والعقائد الدينية. والمفالمات والاعاديات العادية والمباغنة. وهي في مجملها مجموعة من النفوذ الصامت. والمؤثرات الخفية التي تعمل في العقل كما تعمل.

المرئيات في الجسم . فتؤدى بصمتها إلى تربيتها . أى إلى اكتساب ماديات .
على أن الواجب يقضى بأن لا تعتبر التربية من العوامل الانشائية المطلقة
وأن نحلها مكانها المشروع في عالم الابداع والخلق مع تغلب التوارث عليها .
ذلك بأن وجود التوارث سابق على وجود التربية . وتاريخ حياة أغلب العظماء
شاهد على ذلك . كما أن حياة المفكرين والفنانين والمخترعين تدل على أن التربية ضئيلة
القيمة إذا قيس أثرها بأثر التوارث . فإذا قيل أن سلطان التربية كان مطلقا
وحاسما في بعض الطبائع كان هذا القول حقا . ولكنه لا يكون كذلك في
المجموع .

فالتربية وسيلة صناعة في مبدئها . نخلق فينا طبيعة فأنه تلوح في نظرنا
أنها جبت الجوهر . ولكنها لا تصل إلى هذه القوة في أغلب الاحيان . فكم
من رجال تحلوا بهذه التربية ولكنها لم تهدم غرائزهم؟ فهي إذن ليست الا دهانا
لما عاينهار فتيتا عند أول صدمة . لتظهر الطبيعة الاصلية نهجها ووحشيتها .
أو فضائلها وقناعتها . ولقد يدهش الانسان في بعض الاحيان عندما يرى أن شعوبا
بلغت شأوا بعيدا من المدنية والوداعة والانسانية وحب الخير بان سيادة السلام
لا تلبث أن تنقلب عقب اعلان الحرب . أو عند اضطدام مطاعمها بحقوق الضعفاء .
وحوشا كاشرة تهبط إلى أحط دركات القسوة والوحشية . ولكنه إذا ما فكر
مليا علم أن الحرب ما هي الا عود لمبدأ الخليقة . وسيادة الهمجية والوحشية .
وما وظيفة هذه الحالة إلا أن تبعث إلى الحياة تلك الطبيعة البشرية المتلازمة
معيها . والسابقة على أى ثقافة . وتخرجها من مكمنها في حماستها . وتطوئتها .
وعبادتها للقوة . والمطامع الاشعبية . ولذلك قد حق قول كارليل . « ليست
المدنية الا غلافا يستر طبيعة الانسان الوحشية وهي تحترق بنار جهنمية »
فإذا كان لزاما علينا ألا ننسى كل ذلك . فمن الواجب في الوقت نفسه أن نعلم

أن التربية وأن لم تكن كل شيء إلا أنها قطعت بالعالم أشواطاً بعيدة في المدنية والرقى حتى وصلت بنا إلى ما نحن عليه من رفاة وترف . فهي لذلك عامل لا يستهان به . ومن الممكن أن نحمد أنفاس الغرائز إلى حين .
ففي أي بيئة تربي سعد ؟ وهل كان في مقدور هذه البيئة أن تؤثر في نفسيته وغرائزه حتى تغير معالمها وتبدل أطواراً ؟

في الكتاب

أقد تلقى سعد زغلول العلوم الأولية في كتاب بقرية ابيانا . ومعلمو الكتاتيب إذا إمتازوا عن تلاميذهم فبحفظ القرآن عن ظهر قلب دون فهم معانيه وحكمه وسمو مواعظه وجليل آدابه . فهم اذن حازون عن أن يبنوا الفضائل والخلق الكريم في نفوس الاطفال . قاصرون عن تقويم أعوجاجهم الخلقى وإنزاع الرذائل الموروثة . أضف إلى هذا أن «فتى» الناحية تابع للعمدة ومن رعاياه . فهو بهذه المثابة خادماً أميناً للعمدة ولا بناء للعمدة . لا يستطيع أن يقاوم لهم هوى . أو يصرع لهم إرادة . أو يلاحظ عليهم تنكب الصراط المستقيم . ولذلك لا يمكن أن تستنتج إلا أن وسط الكتاب أن لم يكن أنس من بيئة بيت العمدة بحكم ما يجمع من شتات ألوان الاهالى ومزاولة «المقرعة والفلقة» فإنه على الأقل متجانس معها . وحاجز عن أن يؤثر غرائز سعد تأثيراً يرفعه عن المستوى الخلقى لا بناء العمدة في ذلك المهد السحيق .
فقد بقى سعد في بلده يتعلم العلوم الأولية الى سن السادسة عشرة من عمره . فهو إذن كان قد تكون وشب في هذا الوسط الذى يزيد الغرائز رسوخاً أن لم يرجع بها القهقري ويدهورها من جراء الاختلاط بعنهم أخط من مستوى دار العمدة . ثم انتقل إلى القاهرة لتلقى العلم فى الأزهر .

فهل كان الازهر والحياة التي يتطلبها التحصيل في الازهر - عهد القويمة
وتدهو التدريس فيه مما يساعد على السمو بغرائز ابن العمدة ؟

في الازهر

لم يكن وسط الازهر في مجرعه بأرقى من وسط «دوار» العمدة ولا في المعيشة
التي تفرض على الازهرى بأرغد مما هي عليه في منزل العمدة . وكان سعد
قد حضر العلم في الازهر على علماء أعلام كالغفور لهم الشيخ الميرزا العباسي
والشيخ احمد الرفاعي أبو النجا الشرفاوي . والشيخ محمد عبد الله . فان هؤلاء
ما كانوا أساتذة له خاصة . ولا كان اجتماعهم به على التوالي . لذا كان قد
أكثر من التردد على الشيخ محمد عبد الله كبيراً . فان عقيدة هذا الشيخ اذا لم تكن
خالصة من الشوائب السياسية . وإذن فقد كان سعد ككل أزهرى في عصر حلقة
الدرس ثم ينصرف مع اخوانه الى زكره . واذا خرج للرياضة والزهة فالى
أقرب بقعة منه . الى جبانة المجاورين . ولكن منه ما كانت تساعد على أن
يعتبر ويستعبر أمام طي الدنيا ونشرها . وانما ساعدته على أن يشب متسولاً
وينزع متسولاً لينادي بان في ميدان التسول متسعاً للجميع حتى انتقلت العدوى الى
الامة جهماً فأصبحت تسنكف حقها في كبرياء وعظمة هي عين الخزي القومي .
وأى وكر كان يأوى اليه سعد ؟ وأية حياة تلك التي عاشها ؟ ان حياة الازهرى
في غابر الازمان ما كانت تدعو الى المنافسة في سبيل التتم بها . ولا كانت
تفري على الاندماج في زمرتها . ويكفي أن يكون الانسان سيم وصفها من
فم الاستاذ ابراهيم الهلباوى بك ليحزم بأنها حياة تعطل عن السمو بالاحساسات
والعواطف والمقل . وتعوق نبيل القلب عن الاستظهار على نقيضه . سواء أطبقتنا
قواعد قانون البيئة أو قواعد قانون الملاسة الخاص بالغذاء والهضم .

فلا الجو ولا الهواء ولا الماء ولا الطعام النباتي وطبيعة الاطعمة والمشروبات
ولا الاحساسات الازهرية التي كانت تدخل بلا انقطاع في جسد سمد مما
يسنطيم أن يعاون على تكوين طبع جديد أو خلق جديد يغير خلق ابن العمدة
وطبع ابن العمدة أو يزيل أثر الرعدة المتخلقة عن «الفلقة والمقرعة»

أما التربية المدرسية الازهرية. أو بهبارة أصبح أما الوسط الادبي الازهرى
الذى كان في جملته مجموعة من النفوذ الصامتة والمؤثرات الخفية التي تعمل في
العقل كما تعمل المراتب الجسم فتم ابدأت بصمتها إلى تربيته أى إلى اكتساب
عادات . ولكنها لم تكن عادات تحمل على استئصال نزعات العمدية . بل كانت
عادات تنمى نزعات المستبد الضعيف . ولا سيما إذا راعينا أن علوم الازهر
ليست أصلياً مما ينعى المدارك . كالرياضة والفلسفة والتاريخ الخ

لذلك تخرج سمد من الازهر مطبوعاً بطابع العمدية وبقي طوال حياته
كذلك إذ كان قد اكتمل وقتئذ سن النضوج . وإذا كان الوسط التالى لوسط
الازهر قد غيّر فيه أو طور ، فاعلمنا رماذ غشى النار لا يلبث أن يتطاير إذ
ما عصف ماضية غيظ أو حقد .

سمد بعد تخرجه من الازهر

لقد بقي سمد نعمة للدانين . وغمّة للقاصدين . وغمصة للمعارضين .
والعوبة في يد الغاوين . وشقاء السقيم . والداعى إلى سراط غير مستقيم .
والدليل إلى البلاء المقيم . والمروج لمذاب يوم عقيم . سالك مسالك سدة
الاقوياء . وهاضم حقوق الضعفاء . ومقيم شمار دين الاذلاء وشرائعهم .
ومريد شوارعهم . ووارث مشاعرهم . ليس لقلبه مفتاح . ولا لبصيرته مصباح
اتخذ الحق ظهرياً . ونبذه نسياً منسياً . لا تهوى الدنيا عليه حتى يجهاها

وراءه . وإنما هي عزيزة عليه فيجعلها مكان إمامه . ولا يتصور الموت في أي وقت
 أمامه . لذلك فإنه ما كان يعقد بالمدل عقيدته . ولا يطوى على الاحسان والفضل
 طويته . إذا ساد لا يعتدل الجائف . ولا يقصر الخائف . ولا يأمن الخائف .
 تردد فرائض العزل من رواعده . وتبرق أبصارهم من بوارقه . وتصعق الضعفاء
 برواعقه . انه كان للاولياء والخصوم الشرفاء كالغيث العادي . وعلى المخلصين
 الاطهار الاتقياء كالغيث العادي . يعترف أعداء الحق بعوارفه وفضله . ويعترف
 الاذلاء والمستضعفون من نواله وبذله . بينما لا يبذل أي جهد في رعاية عهد .
 ولا يتصافى على كدر الزمان . ولا يتوافق على غدر الحداث . يحجل انه والناس
 كاليدنين . وأن العين لا تستعين إلا بالعين . يحول موافقه على الاحوال .
 واختلاف الاحوال . لاهو لاهوانه عدة عند الشدة . ولا عصرة لدى العسرة .
 يخالفك ولا يجالفتك . ويصاديك ولا يصاديك . ويفارقك ولا يرافقتك . ويكاشرك
 ولا يعاشرك . أبداً لا يكون لك نافعاً . ولا عنك دافعاً . إذا حضر أنى ومدمح .
 وإذا غاب طاب واغتاب وقدح . ظاهره خل موافق . وباطنه سرطان نافق .
 يزك بالميزان الخفيف . ويقومك بالثمن الطفيف . همته هامدة . ويده جامدة .
 اذا احتاج تخاضع وتواضع . واذا استغنى تكبر وتجبر . لا يتبصر ولا يتصبر .
 ولا يعرف ان يتخذ من القناعة صناعة . ولا يرضى بالمال اليسير . حتى أمس أسيراً
 للياسير . متناقض . يكتب بالمسك ولا يختتم . كما يقولون . بالعنبر . ويورق
 بالذهب . ولا يثمر بالجواهر . جبان الى مفره اسرع من الماء المتدفق الى مقره .
 لم يكن لسانه هواه املك . فهوئى بالمركب اللذيذ الى المهلك . نيته معلولة .
 وعقيدته مدخولة . ظاهره يسر الناظر . وباطنه يسىء الخابر . حذق التلقيق
 والنميق . ومرد على الاختلاق والتزويق . كلامه من عناصر نفسه ولذلك
 فلا تعرف الحقيقة أن نمشى في مناكبه . ويخشى الصديق أن يتردد في مذاهبه . واذا

حارب فبسيف كليل لا يقطع. وإذا هم ليضرب برند ويرجع. فتري اليراعة
الجوفاء اثبت منه قوة. وأشد منه. اذا ذكرت السيوف ليس رأسه هل ذهب؟
وإذا نقلت الانباء خبراً عن بريق الرماح من جنبيه هل ثقب؟ وإذا جاء حديث
المدفع غاب عن صراجه وتشنج. وأن دوى جمد في مكانه أو كان وكأنه قد فلعج.
وصتم من طعام في كل ذلك في مكانه.

مع العرابيين

ترك الشيخ سعد زغلول الازهر وعين بقلم تحرير الوقائع الرسمية بالداخلية
واستمر فيها سنة ثم نقل إلى نظارة الداخلية بوظيفة معاون أثناء وزارة محمود
ساحي. ثم عين نائراً لقلم قضايا مديرية الجيزة إبان اشتداد الثورة العسكرية.
واستمر في هذه الوظيفة إلى أن قمت الثورة ورفعت. ومن هنا يتضح أنه كان
مشابهاً للعرابين وأنه كان خطيباً من خطبائهم المفوهين وخادم أغراضهم الإليني
والالمارقي بهذه السرعة إلى نال قضايا دون مؤهلات حقوقية على النحو الذي
كان سعد يحابي به السعديين. فما هي عوامل هذا الوسط التي أثرت في نفسه؟
وما هو مدى تأثيرها في غرائزه؟ وهل سمعت به عن مستوى الممد أم
هوت به إلى حضيض آخر؟

ليست الثورة العسكرية بنت اليوم الذي ظهر فيه عرابي على رأسها. وإنما
هي بنت اليوم الذي هم فيه الضباط لمقاومة الوزارة المختلطة التي أقامت في سنة
١٨٧٨ صرح النفوذ الأجنبي في مصر. ولقد كانت هذه الثورة في بدايتها أصابها هود
وأنبيل مقصداً. وأشرف غاية. وأحزم قيادة. وأبمد عن الشهوة الخاصة منها
في الايام التي تسلط عليها عرابي وانضم إليها سعد بعد أن أتم التحصيل في

الازهر . حيث كانت قد تطورت من ثورة قومية الى ثورة عراقية لا فكرة عامة لها ولا غرض أهمي ترمي إلى تحقيقه . وإنما كانت أنشودتها الوظائف العسكرية الأولى . الوزاردة أخيراً . كما تطورت ثورة سنة ١٩١٩ من ثورة وطنية الى ثورة سمعية . وانتهت بأن صارت ثورة وظائف ووزارات .

ولقد تطور هاتان الثورتان بعامل نفسي واحد هو الشهوة الفردية التي ازدوجت بعامل فكري هو التشكك . فكانت النتيجة واحدة : تدهور عام فكري استسلام . إذ كان العراقيون في نهاية أيامهم قوماً ترددوا وتشككوا في الطريقة التي يحققون بها مصالحهم الخاصة . ولذلك فانهم أسلموا أقيادهم للخزي والعار فيما اصطاح على تسميته بمعركة التل الكبير . بعد أن ضمنوا انجلترا لعراقي عزل الخديرة توفيق . بينما الانجليز هم الذين فشلوا أمام كفر الدوار وكان في المقدور عسكرياً الحاق النشل بهم نهائياً بدم القناة واطلاق المياه واغراق الشرقية ولقد انغمس سعد في مهان هذا التردد فطعم عاياه وتأثر به وبقي في جميع أواروظاته وحياته المقول إنها سياسية كالريشة في مهب الريح لا يستقر على حال . إننا لسنا أشفق على سعد من نفسه . ولقد أعلن جهرة وفي محضر الجمعية التشريعية بتاريخ ١٦ يونيو سنة ١٩١٤ أنه رجل متردد متشكك . متلون الشهور والمقائد حسب المنصب . ووافق الظروف . فاذا كان قد اكتسب شيئاً من الثورة العراقية . فأنما يكون قد اكتسب تدهوراً في العزيمة . وانحطاطاً في القوى الفادرة على تكييف الادراك . وتكوين الاحساسات . وهذا ما سنبينه تفصيلاً عند الكلام عن التشكك .

بعد الثورة العراقية

أبقى سعد عن وظيفته بعد اخلاء الثورة العراقية فأتخذ الحاماة أمام المحاكم الملقاة منهته . ثم انهم فيما بعد بانضمامه إلى حزب الانتقام وهو الحزب الذي تأسس

في مصر عقب قمع الثورة العراقية . ولكنه يرى بعد سبعين سنة أيام . ولما تشكلت المحاكم الأنجلو المصرية انضم إلى المرحوم حسين صدق وشيخاً سورياً أمماً ولما مات وضم بدله إلى مكتب ولهذا الشأن حكاية قديمة . ولكن المحاماة في ذلك الحين لم تكن مما تؤثر في النفس أي تأثير . أو تحدث فيها أي انقلاب بحكم وسطها ووسط المعاصرين . إلا أن مقامهم بعد كانت كبيرة . ولذلك تدخل في المقامات المال . ليرود إلى الدوائر الانجليزية . وانخرط في سلك ندماء المرحومة الامير . باري هانم افندي . فكانت حبل اتصاله الوثيق بالساسة الانجليز من جهة . وبمصطفى فهمي باشا من جهة أخرى . وتم تعيينه في السلك القضائي .

تقرب منه إلى الانجليز وتزلف . وارتقى في أعضائهم وتفرغ . وكان صهره مصطفى فهمي رئيس الوزارة المطاوع خير معين له على هذا التفرغ حتى احتفظه الانجليز بخصومه برعايتهم واتخذوه وزيرهم يشهد أزر دواوب في محاربة العلم والكتابة العربية والكفاءات والوطنية . والاحساس المصري والمصالح المصرية الاولى . والحريات بمختلف آراءها .

فمنذ سنة ١٨٩٠ حتى سنة ١٩١٣ والانجليز يختصون سعاداً . ومنذ سنة ١٩١٣ حتى ١٩١٨ وهم يمنونه ويواسونه . ومنذ سنة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٢٧ وهم يلداعونه وبدلونهم حتى انطبع نهائياً بطابعهم . واسلم زمام نفسه اليهم وقياد زمامته لمثلهم .

لقد قلنا هذا القول وأشد منه لسعد في حياته . بل واتهمناه بالخيانة إذا بحثت تهمه الخيانة التي أسندها لعدلي باشا . ولقد قدمنا لهذا كله وصدر الحكم ببراءة تماماً . من وجهة نظرنا وهاهي جرائد الوفند تتعرف اليوم بالجريمة لعظمى في غير خجل . ولا استحياء . وفي معرض الاستجداء المستنوي في قالب لتهمير باسماء المعروف للانجليز والتساهل معهم والتسليم لهم في حق الوطن

ولعمرك أنه لتعمير بمثابة الشهادة القاطعة على جريمة الحياة العظمى

قالت صحيفة الجهاد المصادرة بتاريخ ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٣١ تحت عنوان (السياسة البريطانية عدو مصر اللدود) ضمن ما قالت ما يأتي: «صحاصيحتنا في هذا المكان تحت هذا العنوان أمس مجاهرة بالحقيقة المرة التي طالما حبسناها في صدورنا مرافاة لما يسميه بعض الساسة (مقتضيات السياسة وترقيتها الظروف)

«ولكن حبل هذه المصاربة قد طال حتى نجاوز طوله كل مقبول . وحتى أفسد علينا جهادنا وأذهلنا عن قضيتنا الكبرى في صورتها الطبيعية ووضعها الصحيح»

وإذا نحن ذكرنا هذا القول فانما على سبيل التمثيل لا الحصر. إذ ليس المقام مقام التذليل على النهم الصحيحة وإنما مقام امتشهاد على حالة نفسية عقلية مكتسبة بباط الوسط قد جاءت مدعمة للغريزة الاصلية في سعد . وهي غريزة التسليم للقوى. والتقهقر أمام الباطل . أو طلائه بدهان يظهره في صورة الحق تطميننا للنفس وترويحها لما .

فاختلاط سعد بالانجليز . واحتكاكه الدائم بهم ويستشاريهم . وتموددهم معاً كلامهم والاصغاء اليه وتنفيذه قد ألان في ابن العمدة لينه الطبيعي . وأرخى من دخاوته الغريزية وأطلق يده في انتهاب حق الغير ليجود به ويسخو تعبلاً للنفس باستبقاء هيبة العمدة وأبهة العمدة . وضاعف من زهدم في خدمة المصلحة العامة التي لا يعرفها العمدة ولا ابن العمدة إلا كرها منه أو تقاضى . فإذا احتفاظا بنصه أو مركزه أو زعامته على أهل قريته .

هل هناك عناصر أخرى

غيرت من غرائز سعد ؟

كان سعد من تلاميذ الشيخ محمد عبده . ولكن الشيخ محمد عبده كان رجلاً مصلحاً اجتماعياً أو دينياً إذا صدقنا اللورد كرومر . دون أن يكون مصلحاً سياسياً كما يدل على ذلك جميع مواقفه ومذكراته ومطالبه الخاصة بالحكم الذاتي . ولذلك لم يكن في وسعه أن يخلق زعيماً سياسياً . فهو هناك وسط احتك به سعد غير وسط المنزل والكتاب والازهر والوظيفة ؟ وإذا كان فهل كان هذا الوسط على قوة تستطيع أن تؤثر في أعماق سعد لتجثت منها غرائز بطش الضعيف بالاضعف . ورعدة انواه في أمام القوى . وطلب الطمن والنزال إذا ما خلا سعد إلى نفسه ؟

نعم هناك الرأي العام . ولكن هل كان هذا الرأي العام قد تكون أيام شباب سعد بعينه جديدة صالحة لأن تقدم أصلاً غذاء لتقويم النفس . وتهذيب الخلق وتثقيف العقل . وتدعيم الإرادة . وتطهير الضمير ؟ لقد شهد سعد أول مشاهد نهاية ثورة . وفترة انتقال حلف كلاهما المتعاقبين والاعياء والصغيب والعجز والنوم .

قبل نهاية الثورة

لقد ظهر سعد فوق خشبة المسرح في عهد مليء بالحوادث الحسام فياض بشارات التدهور التي ارتسمت في أفق الغيب الساخر لتنبئ بأن مصير مصر على أهبة الانقلاب . وتهدد لتوطيد دعائم الحكم الاجنبي في وادي النيل . كان مظهر العربيين وقتئذ غير مخبرهم . انهم كانوا يلوحون في صف مصر

بينما كانت برا كير المصالح الخاصة الخفية تغلب على الطاعة بالصمامة. ورغما من أنه قد كان و مقدور أغلبية النواب الذين أيدوا عرابي أن يؤيدوا كائنا من كان نفس الحماس والغيرة والمقيدة المصطنعة والثقة القعمية. ورغما من أن هذه الأغلبية لم تجرم صفوفها حول فكرة معينة أو راجع معين. بل كانت حائرة مترودة متشككة لها في كل يوم شأن. وفي كل يوم ميل وشهوة. فان ارتباط أعضائها ببعضهم لم يتوثق إلا لما أزدغنهم ويدون حقيقة بمصادقة الوزارة أو الانحراط في سلك خصومها. كواقف اليوم وأمس ولقد هممنا المصريين والاحزاب يتعهدون عن العربيين والخليويين. أي عن حزبين. ولكن الواقع كان نهض سلطانا على أن ليس ثم فرادق مبدئية بين المراضين واللكومير أي بين المؤيدين للخدو والمناصرين لعرابي فالفرقان قد امتازوا بالرغبة الشديدة تجلت في الشهوات التي استبعدتهم عن الحكم ثم فرضت عليهم السعي و مبدل استعادته.

فالشأن بالأمس كان لا يحاكي غير شأن اليوم. عقول دائما قلقة مضطربة دون أن تقرى على أي عمل أو تستطيع استخدام ما أوتيت من مواهب لتجرى أصل الداء الشايط والوصول الى حقيقة الحال. فالواقع أن كل شيء في مصر قد قام بين رجال يمكن أن يقال أنهم جميعا من مستوى واحد. ومصالحهم الهائية واحدة. هي في استبعاد من همما عليهم ومن دونهم عن الوظائف العمومية. ولهذا فان الطبقة المتوسطة سادت وحكمت. ومن الراجح أن لا يفهم حيننا كيف ظهرت حكومة عرابي في نهاية أمرها بمظهر الشركة الصناعية تجري أعمالها وراء تحقيق الاستغلال الذي يرغب فيه مساهموها. كما ان من الراجح أن يعجز الجيل القابل عن أن يتصور كيف تقل معدة هذه الخطة وطبقها. وكيف اتبعتها من بعدهم الوزارات المختلفة.

بلاغة الخطباء

أما بلاغة خطباء الثورة العراقية فقد وصلت نسبياً إلى حد معين . ولا عجب في هذا القول . فان كفايتهم إذا قيست بمستوى الأمة انضجها من ذلك الطراز الذي حذق اخفاء تجويف الفكرة وفراغها بنقاب من التفصاح الخلابة . وتبطنها بطلاء من نوع خاص من أنواع المبادئ السامية . وتجهلها بنسيج من النظريات الساحرة التي تأخذ المستمعين بالواحي والاقدام ولا تترك النظارة إلا أسرى القيود والاعلال الروحية . ولعمرك انها قيود أقسى من الاذلال المادي . وهذا ما اكتسبه سعد وشاهدناه في خطبه . سحر ولكن يذهب باحراق قليل من المخور العقلي .

فهل سمع سعد من حاكى تيير أو كافور أو جمينا متمصاً أو متجسماً البارودي أو عبد الله النديم أو عرابي لينظم نظام الحرية الصحيح؟ أو قرأ لواحد من كبار الرجال كتاباً وهو في ريعان شبابه حتى يشب مخلقاً مخلوق وطني أو سياسي كريم؟ كلا . فما كان بين العراقيين واحد يضاهي هؤلاء . وما بدأ سعد دراسة اللغة الفرنسية إلا حينما من الله عليه في كبره بالتعارف برشدي باشا فشجعه على تعلمها .

فن أن تتغير غرائزه الخفية . غرائز المطاش والظهور كمنت في الضعيف لتؤذيه وتؤذي سمعته وسمعة بلاده؟ من أين له أن يصل إلى ذلك وقد عجز عن أن يعاشر عظماء الرجال ولو فكرياً في الوقت الذي كان فيه كالمجنونة على استعداد لأن يسنه الوسط العقلي كما بهوى وإشياء؟

فهل قرأ مرة أن «تيير» جعل خلال وزارة جيزو (سنة ١٨٤٠ . سنة ١٨٤٨) يلقى في البرلمان من وقت لآخر محاضرات عن الشرف القومي والكرامة الوطنية ليهاجم بها حكم الفرد حتى يرفع في هذا الفن وأسمى كبير أساتذته

خفاته خطبته التي القاها بمناسبة ميزانية سنة ١٨٤٦ مميّزة فنية لا زوردها كلها هنا وإنما نختزى منها بقوله « تبدأ الحكومات حياتها بالتميز والغلبة . ثم يقتادها مصيرها إلى الفشل والخذلان ... إن الأمة قد خولت الحكومة ملك المشروعية الذي يعفيها من الحاجة إلى أي سلطان آخر في الوجود لا جازة هذا الصك . ولقد كان الواجب يفرض عليها اذن أن تتبسم ادارة قوية ماهرة نظمة بصيرة . وهذا ما في طاقتنا أن نسميه سياسة متواضعة تستطيع مع الزمن أن تكون شريفة مجيدة وهل كان في المقدور منذ عشر سنوات أن نجتريء على الافصاح بأن الملك يسود وبحكم رغم مسئولية الوزراء ؟ . لقد كنا نقول إن أي فكرة عن توازن السلطات ونفوذ الملك والوزراء وتجاارب هودة الملكية وذكرى الكارثة الكبرى يجب أن تدفعنا إلى السعي في جعل المسئولية الوزارية جديدة حتى تكون الحصانة الملكية جديدة أيضاً ... وهذه هي القاعدة التي جعلت من (كازميريه) و برولى رئيسى وزارة بمعنى الكلمة « أن الامم المستتيرة لا يجوز ان تحكم على وتيرة الدول الاسيوية . ولكي نصلح نظام الوراثة قد وضعنا نظاماً حكيماً بقدر ما هو بسيط . وهو ينحصر في أن يكون بجانب الملك وزراء جد مسئولين . لهم من السلطان حقيقة ومظهره ... فالواجب على الوزراء الايتواروا وألا يرفضوا القيام مهمة الوسطاء والمهاسرة ... فالوزراء الذين يمحون أنفسهم قد يمكن أن يكونوا وزراء فصحاء بلغاء . ولكنهم ليسوا وزراء المسئولية العاليه ... وعلى ذلك فالملك يسود ولا يحكم » وهل سمع سعاد أن يجيزو أجاب على هذا القول في ٢٩ مايو سنة ١٨٤٦ بقول سامى الخطر حيث قال « ليس العرش كرسيا خاليا . وإنما هو كرسى له فكرة سياسية . ولا يجوز لاحد أن يحاول الجلوس عليه . » أن شخصاً ذكياً حراً . له أفكاره وحواسه . يجلس فوق هذا الكرسى

وواجبه يفرض عليه ألا يحكم إلا بالاتفاق مع السلطات العليا التي أنشأها الدستور... وليس من واجب مستشار العرش أن ينصر العرش على المجلس النيابي. ولا أن ينصر المجلس النيابي على العرش. فهمة الوزراء في بلده هي الوصول بهذه السلطات المختلفة إلى فكرة مشتركة. وسلوك متبادل. ووحدة في توافق الرأي حتى تتحقق الحكومة الدستورية ؟

لم اسمع سمع شيئاً من ذلك ولم يقرأ مثله وقت أن كان صالحي التكوين جسماً ونفساً ولذلك لم تكن حماقة خطباء العصر العربي بكافية لتخدير الفرائز إلا لا سواً.

هل كانت هناك ديموقراطية؟

وكيف يكون الأمر على خلاف ذلك ولم يكن الباب مفتوحاً أمام روح الديموقراطية التي كانت قد ذاعت في أمريكا وانتقلت إلى أوروبا قبل الثورة العرابية بما يقرب من نصف قرن ؟

لقد كانت الديموقراطية قد أصبحت أيام شباب سميحاً أمراً واقعاً في أمريكا وأوروبا حيث تساوى الأمريكان أولاً في الحقوق السياسية. ثم أخذت الفكرة تمهد أمامها سبيل البيت والنماء. دون أن يروقها طائق أو ينزل بها قضاء حتى لقد حض الكتاب في نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر على التآمل فيها والعمل لها كي يمكن الوصول إلى النتيجة المحتومة والمستقبل الثابت. إذ كلما تساوت شروط الحياة زالت الظلم المتبعة. والعادات السقيمة الموروثة. التي كانت أداة غير صالحة لأن تكفل للمجموع الإنساني حياة طيبة. وقام محلها نوع من الاستبداد « الواسع الرحيم » لئلا فوق رؤوس الجماعة شبكة من القواعد الصغيرة المضطربة الدقيقة المتلائمة. التي تحتم في بادئ الأمر إيجاد نظم تحميها. ووسائل تدود عنها. ولا يكون ذلك إلا في حرية

الصحافة وفي انشاء الجماعات والاحزاب القوية. وفي الامر كزية التي تخول كل
أقليم حياة سياسية خاصة . « هذا مادعا » نوكتيل « الاحيال القادمة لتحقيقه
ابتداء من سنة ١٨٤٠ . فهو ذاع في وسط عرابي شيء من ذلك حتى يكون
سعد قد تطمع به وأفتلم من نفسه بدور الولع بالشقاء والاشقاء ؟ كلا .
وكل تصرفات العرابيين تدل على عكس ذلك . وتهتف بانهم إذا كانوا قد طامحوا
بالمساواة وبادىء الامر . قامهم جعلوا منها في النهاية وسيلة حركات مصر إلى
تركة لم توزع على جميع أبناء مصر وفاق الفريضة الشرعية . وفاق الحق والعدل
والانصاف والكفاءة وقانون المنافسة إذ قصر وأوزيمها على أبناء عرابي
وذوى إرحام عرابي كما وزعت من بعده على أبناء سعد وذوى إرحام سعد ومن
بعده على أبناء كل وزاره وذوى إرحام كل وزارة وكان بلا ترتيب الطبقات .

في مجلس النواب

وهل كنت تستطيع في النهاية أن تأنس في مجلس النواب نواح خصبة تقسم
لبذر بدور جديدة صالحة . وتطبق العمل لذلك . وتتحمل المجهود الذي يستلزمه
أداء هذا الواجب ؟ وهل التف حول عرابي بعض رجال تفرغوا لدراسة
المسائل الحكومية والشئون الادارية العامة وتمحيص الميزانية أو إصلاح
قانون الانتخاب وتنظيم العمل والاشغال العمومية الخ . حتى نستدل من
ذلك على وجود الروح الحزبية للترجمة ؟

وهل محمد نائب من نواب عرابي . أو عرابي نفسه بمساعدة الاخضائيين
إلى رد الحياة إلى طبقة الشعب التي إنطقت فيها جذوة الحياة السياسية
مع أن هذه الطبقة هي التي لها قبل غير هامة أنعمت المساواة حق الحياة والوجود
دون الطبقات الأخرى التي لم تدب فيها الحياة إلا بفضل هذه الطبقة المجاهدة ؟
هذا إلى أن مصالح الطبقة المتوسطة كانت قد تلاءمت لدرجة تهادى الناس معها

كل مبادسه وكل عدم «والم سياسي يتشكل بهذا الشكل لا يسلح لقيام أحزاب فيه بالمعنى الصحيح للكلمة. مادامنا لا نستطيع أن نلخص فيه تعارضا وحركة وخمباً وحياة مما لا يتولد إلا عن وجود الأحزاب في البلاد الأخرى»
ثم من سنطاع أن يرفع عقيرته أمام «أبي الامة» الفلاح القبح مطالباً بالتصريح لطبقة الشعب باشتراك منتظم في إدارة الشؤون العامة حتى يعرفوا أن يوجدوا الجهد التشريعية في سبيل تحسين مصيرهم الأدبي والعالمي. وتسميم التكليف العامة ونصف المساواة القانونية والرافعة الم تبطة بحق المسكنة؟ من رطم صوته مطالباً بذلك وغماً في هذه المسائل من شرف وعمل مستتفي به الضرورة وبجتمه التبحر بالامنازع؟

لا. إن روحاً من هذا القبل لم تكن في وسط عرابي حتى تسعو بخلق سعد وترفعه من مستوى العمودية إلى مستوى ديمقراطي. ولذلك فإن سبيلنا طبق واقع سنة ١٨٨٢ على سنة ١٩١٩ وما تلاها فحق الكفاهات.

الموقف العلمي والسياسي

إن بحث الحياة العامة للشعوب سواء أكان من الناحية السياسية أم من الناحية الاقتصادية لابد أن يعطدم بصعوبات كأداء عندما يريد أن يعرف نشأة المظاهر العلمية المختلفة. وذلك راجع إلى قوة التيارات الفكرية والتمارات الحيوية الرئيسية التي تسود الشعوب إبان نهضاتها. ولهذا تقرر ارتباط الانتاج الأدبي والفني بالظروف المتولدة من الحوادث السياسية والرقى المادي ارتباطاً وثيقاً.

فالأدب. والفنون في بعض الأحيان. تختلط بالسياسة اختلاطاً تاماً. ويرجع هذا الأمر إلى اشتراك الامة اشتراكاً فعلياً في الحياة العامة. حتى لقد رأى بعض الدول أن من الطبيعي أن تمثل الأدب في البرلمان. وأن تمثل السياسة

في المعاهد العلمية ماذا الكاتب لا يحرز السلطان إلا بالمؤلفات والمقالات .
والسياسي لا يستطيع أن يسعى للمجد إلا عن طريق العلم والأدب . حتى لقد
رأينا النائب والشيخ والوزير يجنحون إلى الجلوس في مقعد الأديب ورأينا الشاعر
والفيلسوف والروائي وعضو المجمع العلمي يميلون إلى الجلوس في مقاعد السياسي .
وشاهدنا العالم والأديب يفخران بحكم أمتهم والنشريع لها . حتى لقد كان طمع
« تيير » في أن ينخرط في سلك المجمع العلمي الفرنسي يبادل مطمح « فكتور
هوجو » إلى أن يجلس في مقعد مجلس الشيوخ . ولما صادرت حكومة فرنسا
رواية « الملك يلهو » صاح هوجو : « الآن بدأت حياتي السياسية » فإذا
كانت الحال أيام الثورة العربية ؟

لقد كانت الثورة عسكرية . ولذلك لم تنمر إلا هدماً وركاماً ورماداً .
إنها لم تكن ثورة عمرانية قومية بالمعنى الصحيح . ولا هي ثورة فكرية
على الخصوص . وإنما كانت ثورة مناصب واحلال إنسان مكان إنسان في العيش
والارتزاق فطبعت شباب ذلك العهد بهذا الطابع ووجهتهم بهذا الميسم حتى
الآن . ونقل هؤلاء طبعهم بالوراثة أو المدوى إلى أبنائهم ومن خالطهم
وعاشرهم . فكانت الأساة التي نشاهدها اليوم .

ومع ذلك فهل سمعنا في ذلك الحين أن الكتاب قد نادوا بالديموقراطية على
أنها قاعدة المجد الذي لا يبره مجد السلاح . وأساس النجاح الذي لم يحرزه أحد
قبل الآن ؟ وهل رأينا المؤرخين يهزون أعواد المنابر . على تقيض القاعدة
القديمة التي فرضت عليهم الوعظ في الدور والازواء في المعاهد العلمية بجانب
العلماء ؟ وهل شاهدنا الروائيين يتحدثون عن الغيب وينبؤون بما وراء الحجب
بعد أن كان همهم ينحصر في سرد الافاصيص ؟ وهل القينا الشعراء يسلكون
سبيل الهدى بعد أن كان دأبهم الترنم والغناء والمدح والطجور ؟ لا . لأن

وسطا كوسط عرابي ما كان يسمح بهذا . ذلك بأن الآداب التي كانت تسمى للبهتان والنميق وترغب كل الرغبة في التوجه للجهاير أمست عملا تجاريا بجنا . له نظام نفمي محكم هو فائدة عرابي ومن حوله . ولعمرك انها حالة كان من الواجب أن نستثير عواطف المصريين وتدفعهم إلى رفع الصوت طالبا ضد مخازي الآداب الحديدية والآداب المصطنعة النقصية . وواقم أيام زمامة سمد كان من هذه الناحية صورة طبق الاصل من واقم أيام عرابي

الصحافة والمسرح

ولكن الصحافة التي كان من الواجب أن تكون الوسيلة الأولى لترويج هذه السلامة لم تكن لحسن الحظ على انتشار وذيعوع يمكنها من ذلك . فبقى الرباء منحصرا في دائرة عرابي وبيئة العرابيين دون أن ينتقل بقضه وقضيضه إلى الخلف .

على أنه إذا قلنا البلد في ذلك الحين وجود هذه الصحافة المنتشرة فكسبت بذلك انقاء تماثيل الشر وتواليه . إلا أن هذا المكسب قد قابلته خسارة جسيمة هي العجز عن قتل الثقافة العربية واذاعة النظم الامتقالية ووسائل تحقيقها أولا فأولا . ونشر المبادئ الحديثة والافكار السامية كلما تمخص عنها عقل ناضج .

ولعمرك أن موقفا كهذا ما كان يدعو إلى التأثر والاندفاع في سبيل الرقي وإنما كان يدعو إلى التأثر والنكوص على الاعقاب في همت التدهور . وإلا فلماذا واحد على ذلك اطمم والمقول والعقريات والكفاءات الذين استشهدوا في دور الصحف رغم متأثرون بأن في ميدان الصحافة مصدرا لا ينضب من المجد دون الثروة . وأما عرف والسمة دون المصالح والشهوات ؟

وهل وجد في المسارح رقى يسمو بالغرائز والاخلاق ؟ بل هل رأيت
ما وقع في أخريات أيام لويس فيليب عند ما كان المذهبون انشغالاً بكمون
الذين أقبل الشعب على منتجانهم يتقاضون حصة من ثمن الرواية على سماعه، و
تجارى برؤونه اذا لم يخرجوا رواياتهم ؟ والقصص ؟ هل رأيت الصحافة وقد
شغلت بها ثم هجرتها إلى النقد اللاذع فتولدت آداب وقتية سار وراء
شهوات الجمهور كواقع اليوم حيث يحاول الكتاب الآن أن يرضى مطالبه
وذوقه وإحساساته ؟

حتى هذا الشيء البغيض لم يكن في ذلك الحين. حين الحذب الذهني المطلق
والجذب العسكري الحجري . فكيف لا يتأثر سعد بهذا الوسط المحيط وقد
غرق فيه من ذقنه إلى انحصه ؟

الموقف الفكري وتحولاته

لو أن الثورة العربية كانت ثورة فكرية لوجب أن تخطط الحياة العلمية
بالحياة السياسية والتجارية أيضاً حتى تألف الحياة العلمية هذا الاختلاط
وتجرى الأقلام بوصف الواقع والحقيقة بمدو صف الخيال والعاطفة والحماسة . ثم
تنتقل من هذه المرحلة فتتناول النفس والخلق . وتخرج بمدئذ بالجهود الأدبي
إلى الدراسات التاريخية ونقد الماضي وخص الآثار والفنون في القرون الوسطى
والمصور القديمة فحسب كان لزاماً أن يبدأ بإنشاء لجنة لدرس الآثار التاريخية
على نمط ما وقع في فرنسا سنة ١٨٣٧ . ثم تأسيس مدرسة على وتيرة مدرسة
أثينا التي تأسست في فرنسا سنة ١٨٤٩ . وأن يتبع ذلك دراسات نقدية في
في الادب واللغة ثم دراسة الآداب الأجنبية حتى تكون مرحلة المترجمين
الذين لا يعمل ولا يكلمون من توجيه سيل جارف من الآداب الأجنبية

نحو مبادئ العلم المصرية كي يؤدي الأمر إلى تجديد وبعث تاريخي . تنتقل معه النظريات من موقفها السطحي إلى التعمق وسر غور الحقيقة التي تنتجها الظروف السياسية والطبيعية والوسط على نور العلم القديم .

الفنون

وهل كان في مصر فنانون في عهد العرابيين ؟ كلا . هم أن مصر مهد الفن القديم الذي أخذ فنانون الغرب يستوحونه ويستلهمون . وها هو ده لاكروا يقول لأحد أصدقائه . « انى أصفق لك طربا وأعجبا من جراء ولوعك بالمصور القديمة . فهي ببيع كل شيء » ذلك بأن هذا الفنان قد فهم القديم كما فهمه شكسبير واعتمد عليه في إعادة التوازن للصحة الفنية بعد أن أصيبت بالحمى . فصور كيلواترا في سنة ١٨٣٩ .

إن شيئا من ذلك لم يتم إبان الثورة المرابية مع أن الفن من مستلزمات الوطنية بل هو عنصر هام من عناصرها .

الانتاج العلمى

كان من الواجب أن يمتاز عصر الثورة المرابية بالانتاج العلمى عن باقى الانتاج الذهبى امتيازاً واضحاً . ولكن ذلك لم يحصل فقد بقى كل شيء عندما نعم لقد بقى الانتاج العلمى عندما لانعدام الانتاج الفكرى المترتب على انعدام ذبوع اللغات ذبوا صحيحا .

إن العلم لم يمد فى متناول العاديين من الناس . وهذا مادعا فى أغلب بلدان العالم الى وضع نظم خاصة للتدريب عليه . وتنظيم إنتاجه الدولى الأمر الذى لم يكن له أثر فى عهد الثورة المرابية .

فهل لم يصبح من المستحيل أن يدرس الانسان الجهد العلمى القومى بعيداً عن الجهد الانجليزى والامانى والايطالى؟ وهل لا يستعصى عليك التمييز بين الجهود الخاصة والجهود القومية إذا أنت ولجت باب التطبيقات العملية؟ ألا إن الأمة التى ضربت بسهم عظيم فى تنظيم العمل هى احدى وحدها التى كانت تدرك النتائج المجدية . فهل من مجهود بذلته الثورة العربية فى هذا السبيل؟ مما لا شك فيه ان الحالة السياسية والاجتماعية لبلد ما كانت تساعد مساعده تقل أو تجل طبقا لمجهودها فى تنظيم هذا الانتاج . وتؤدى بهذا البلد حتما إلى أن ينال من نتائج هذا التنظيم بقدر مساعده فيه . فأى مساعده بذلها العرباويون فى سبيل الانتاج العلمى حتى ينالوا منه أى قسط؟

ومع ذلك فان كانت البحوث والاكتشافات العلمية فندلاحت نتيجة لازمة لقوانين التطور العام ولا ارتباطا لظهورها بالتطور الخاص بأمة معينة وانما ارتباطها يكون بسلسلة تطورات علمية مستقلة تستوجب البحث عن قانون يجمع بين هذه القوانى المبشرة فى العالم . وهذا لا يكون الا بتفهم فرض المقصود تحقيقه من العلم . والمكان الذى تشغله المباحث العلمية فى عالم الفكرة . وحدود مكانها . أى بتوحيد العلم والذقاء العالمى . فأى مجهود صرفته الثورة العربية فى سبيل البحث عن هذا القانون؟

لقد قال رينان ضمن كتابه الخطى الذى وضعه فى سنة ١٨٤٨ وأذيع فى سنة ١٨٩٠ « ان العلم يحوى مستقبل الانسانية . فهو وحده الذى يقول لها الكلمة الخاصة بمصيرها . وسيأتى اليوم الذى لا يخضع فيه العقل المستنير بالاختبارات المصادقات ويسير فيه تحت قيادة العلم فى الاتجاه الواضح من الفرض المقصود وستكون آخر كلمة للسلم هى تنظيم الانسانية علميا »
فهذه الافكار وشبهاتها قد دلت على أن مهمة العلم لا تنحصر عن أن تكون

المحل على إلغاء سيادة الرجل الطبيعية وإخضاعها ووضع قاعدة يجرى على منوالها في الحياة العامة والخاصة . أي وضع قاعدة سياسية وخلقية . وهذا معنى قوله رينان . « فبأسم الله أسألكم أن تسلموا معي بأن العلم وحده يستطيع أن يمكن الإنسان من معرفة الحقائق الحية التي لا يتسنى لنا بدونها أن نتحمل الحياة . ولا أن يكون للجماعة كيان » فهذه الصفة . وتحت هذا السنار مهد العالم للمحل على التأثير . المحطات السياسية كما مهدت الآداب . فهل كان للثورة العرابية نصيب من ذلك . حتى يكتب سمد شيئاً منه بإستلاطه مع العرابين ؟ كلا . فلا كان حظ العرابين من العلم يمكن من العمل على إنشاء سيادة الرجل الطبيعية وإخضاعها ووضع قاعدة يجرى على منوالها في الحياة العامة والخاصة . أي وضع قاعدة سياسية خلقية . يتسنى له بموجبها أن يعرف الحقائق التي لا يمكن بدونها احتمال الحياة أو يكون للجماعة كيان ولا سيما بمذاقضاء الأكناء . وهذا الجهل هو ما دفع سمد إلى أن يجهر في مجلس النواب في قبة تمير ودماة تمكبر بأنه لا يعرف معنى للجماعة ووزارة المعارف قائمة .

ماهو الرأي العام

ليس الرأي العام هجرة من الصيحات والصخب والنفوية والجلبة والتعيق والنهيق والآلام والحسرة والبكاء والنحيب والدوران واللف . أو الركون حول النفس والغاية والشهوة . وإنما هو مجموعة مؤثرات كامنة في حركة فكرية علمية أدبية فنية اقتصادية مألوفة صناعية زراعية تدوى صيحاتها فوق المنابر وعلى جدران المنازل . وفي داخلها . وداخل المدارس والجامعات . وفي أنهر الصحف والمنابر والمصانع وفي بطن الأرض وجوف السماء وفي أغوار الماء وعلى سطحه .

ليلا ونهاراً ويمتد شعاعها الى ما وراء البحار ينافس وينجح في مختلف الاسواق .
ولهذه المؤثرات قوة مغناطيسية تجذب القلوب الى الامام ودائماً الى الامام . ولها
نور يهدي هذه القلوب ويظهرها ويشفيها من الامراض فلا تموتورها حتى ولا
يفنابها جود ولا ألم . كان الخطر ومهما اشتدت الصدمات والنوازل . فهز وجدت
هذه المؤثرات في أيام شباب سعد . أيام الثورة العربية ؟ إن ما قدمناه يدل في
وضوح على انعدام الرأي العام الصحيح . ويثبت أن الثورة العربية كانت في
نهايتها ذبحة صدرية أزاحت بصير القادة وتركهم في أماكنهم جامدين حيارى
وعن شؤون الوطن لاهين . لا اختيار لهم . ولا حرية لارادتهم . ولا تفهم لحقيقة
موقفهم . فمن أين كان لسعد ما يطعمه في شبابه بطابع الأحرار والمفكرين
والمجاهدين الراسخين في علم القيادة والسياسة والفراسة . وما كان وسط
الازهر العلمى الذى تجرد من التبجر في الرياضة والجغرافية والتاريخ والفلسفة
والاجتماع الخ يؤهل واحداً من طلبته في سنة ١٨٨٠ ليكون زعمائى سنة ١٩١٩
وما بعدها . ولا سيما بعد أن احتضنه الانجليز نيفاً وثلاثين عاماً طبعوه فيها
بطابع الذلة والاستكانة واحتقار الذات ؟

هل كان سعد رجلاً سياسياً ؟

يحق لنا بعد الذى قدمنا أن نبحث فيما اذا كان تكوين سعد وطاق غرائز
الشيخ ابراهيم زغلول والوسط الازهرى والبيئة العربية وابتهاده في بادىء
نشأته عن الوسط الراقى رقباً عصر يما يساعده على أن يكون رجلاً سياسياً صالحاً
لأن يتزعم على مصر في سنة ١٩١٩ ؟
ان بحث هذا الموضوع يتطلب كلمة أولية عن رجال الثورات الفشيلة .
وكلمة تمثيلية عن تغلب الطبيعة على الوسط ساعة الخلق أو انطلاق اليد بعد
حجر وأسر واعتقال روح .



رجال الثورات المشهورة

كان سعد من رجال الثورة العربية . والثورة العربية الخفية . وكان من الواجب أن تحقق لأن رجالها لم يكونوا أهلاً للقيام بها فهل من يخفق في ثورة يصلح لأن يقود ثورة أخرى ولا سيما إذا صادق عدو البلاد والمخترق في سلك خدمه خلال حيل ؟

لقد أثبت التاريخ أن فشل ثورة نهائياً يؤدي حتماً بمن اشتركوا فيها إلى عجزهم عن القيام بأخرى أو قيادتها على أحسن وجه . وهذا قانون نفسي لا منازعة فيه ولا شك بعد أن أصبح علم النفس هادياً في الحكم على الرجال وصلاحيتهم للأعمال التي تناسبهم قوة الإرادة وقوة الحواس وقوة العقل .

إن فقدان الصلاحية للقيادة لا يترتب على فشل الثورة أو العمل المجهد فحسب . بل هناك طول الانتظار والمعادة والتطلع كلها مؤثرات في النفس تدعو إلى اليأس والقسوط وخور العزم . وإذا شئت أن تتأكد من هذه الحقيقة فأنل مثلاً صحيفة نالميون قبل نفيه إلى جزيرة الباء وبعدها وأولاً قلب صحفياً أخرى من صحف الحزب الجمهوري الفرنسي بعد ثورة سنة ١٨٣٠ . وهي ثورة أهلية لم يمدد بها احتلال قوات أجنبية ولا ارتقاء زعمائها في أحضان عدوم .

لقد خلا الله بلان الفرنسي من الجمهوريين بعد أن صدر قانون يحول دون ترشيحهم . ولكن إذا كان هذا المجلس قد تجرد من ممثلي هذا اللون السياسي فإنه قد اشتمل على متطرفين ديمقراطيين . فضلاً عن أن دعاية الحزب الجمهوري كانت متشابهة بلسان « القاموس السياسي » والمجلة الجمهورية « لدوبري » . ومما رامت « مجلة لرقى اللويس بلان » وصحيفة الناسيونال .

كان الحزب الجمهوري قد تضعف عقب وفاة جازنييه بأجيس الكبير سنة

١٨٤١ . وكافيندياك سنة ١٨٤٥ والسحاب نزيلاوراسباي . حتى لقد تسرب اليأس إلى قلوب أشد الجمهوريين حماسا أمام حكومة طال استحكامها وأدى الأمر بالجمهوري « اراجس » في سنة ١٨٤٤ إلى أن يقول لنا خبيثه . « أصرح بأن الحكومة الدستورية الملكية الوراثية هي الحكومة الوحيدة التي أرى أن في مقاسورها أن تغرس في فرنسا جذورها وتوأنى ثمارها . واضطر هيبوليت كاربي في سنة ١٨٤٦ إلى أن يصرح بأن الحجة الانتخابية بانه مخلص للنظام الذي أنشأه الدستور المنحة . نالهم ذلك رأي والده الذي كان جمهوريا ولم يتأخر من قبول النظام الامبراطوري استقرا لارادة الامسة و . سبيل حب بلاده . انتهى به الأمر في سنة ١٨٤٧ إلى أن يصدر منشورا تحت عم السحاب « المتطرفين والدستور المنحة » أسن فيه « أن الدستور المنحة لا يعزى الرقي للديمقراطية بها أنه لا يعزى أي تقدم . سواء أ كان في سبيل الاصلاح الانتخابي (من ناحية تقدير الاذلية وانقاص الضريبة والانتخاب المباشر من درجة أو درجتين) أم في طريق مختلف الحريات الفردية الخاصة بالصحافة أو التعليم . أم في سبيل المسؤولية الوزارية واختصاص الخلقين . . . اني من هؤلاء الذين كانوا يرجون في سنة ١٨٣٠ قيام الجمهورية ولكني لم أكن من هؤلاء الذين لا يرضون إلا بالنورة من أجل الحصول على كلة . فالتطرفون كانوا إذن يريدون أن تكون الحرية تامة لجميع الآراء . وأن تكون الملكية هي الحكم عند الضرورة لفصل بين السلطات ومنح الحق للغالب من الاحزاب واسناد السلطة التنفيذية له » فالحزب المتطرف كان يرى في الدستور المنحة تحقيق كل ما يريد وما عليه إلا أن يساعد كل حزب يدعو إلى الاصلاح الانتخابي وبنيان الخلق السياسي .

وقد اتخذ الحزب المتطرف صحيفة « لاريفورم » لسان حاله . وادارها

«لدروررلان» وهو محام فاز فوزا ساحقا في مانس أثناء انتخابات سنة ١٨٤١
 ولقد حوكم أمام محكمة الجنايات لشره خطابه الانتخابي في صحيفة «كورييه
 ده لاسارت» حيث قال لنا خبيه : «إن الشعب قطيع من الانعام يقوده
 بعض الممتازين مثلى ومثلكم . ويطلقون عليهم اسم الناحيين . . . وإذا نهض
 هذا الشعب ليطالب بحقوقه التي أجزاها في غيابات السجونات . وإذا هو
 جمع صفوفه حتى لا يسحقه الشقاء وتقضى عليه التعاسة أو دافع عن أجره
 الذي لا يمينه على سد حاجته الحيوية زج به في ظلام الزانين . وإذا هو
 كتب على املامه «قطعة من الخبز أو الموت» كما حصل ذلك في مدينة ليون
 أنهارت عليه المقد وقات النارية . وانتهكت الجنود حرمان ما تبشر من
 هشيم رفاته . ولكن الشعب هو السيد . ولقد أعمد حملة شعار الحرية بهذا
 الاسم أيضا . جزاء ما أذاع من دين شرعه على أسنة ومباح المساواة والاخاء
 ان الشعب مسبح اليوم فاذا نصنع لبعثة لاصاص لنا من الاصلاح . فهو
 الشرط الاساسي لسكل رقي سامي . فليكن اذن كل وطني فاعبا . وليس في
 المقدور أن يقوم مجددا إلا إذا تمضى نحو اصلاحات صادقة صحيحة . فالحزب
 الديموقراطي قد امتاز على الخصوص بهذه الناحية السامية القائمة على حب الشعب
 امتيازاً عظيماً يفوق امتياز الاحزاب التي تخضعها ثورة بولية سنة ١٨٣٠ .
 فالشعب ليس له وجود في النظريات الملبسة بالانانية . — إن الشعب في تقدير
 بمضى يدوم «بشمه تحت اقدامه كي يصل إلى غايته وكذلك حزب «ارو»
 إنه لا يعني أيضاً بالشعب . أما حزب «المشروعية» فانه يتكلم من سيادة الشعب .
 ولكنه الشعب يرتدى جلد الاسد» فحكم عليه أربعة أشهر وثلاثة آلاف
 فرنك غرامه ثم صدر حكم محكمة النقض والابرام ببراءته .
 ولقد أعلنت هذه الصحيفة أنها الاسان الناطق بنوحيد جميع العناصر

الديموقراطية ولا مبدأ لها إلا تطبيق سيادة الشعب ودراسة الزراعة والصناعة والتجارة والعمل على إرضاء الطبقات العاملة . وتعليم الأهالي واحسانهم وتبيان حقوقهم . وتذكير الشعب بأن مصالحه الحقيقية تفرض عليه توحيد الصفوف والتآخي .

أما الصيغة التي أراد «لدرورولان» أن يجمع حولها صفوف لديموقراطيين أمثال (انيس اراجو) و (لويس بلان) و (جعفر واكافنيك) و (كرميون) و « فلوكون » و « بيرلرو » الخ -- حتى ينضم اليهم الشعب فهي « مبدأ الإصلاح الانتخابي على قاعدة الاقتراع العام » وهو مبدأ قديم سبق أن قال به كافنيك و لويس بلان في هذه الصيغة : « إن الإصلاح السياسي شرط أساسي للإصلاح الاجتماعي » وهذا هو الميدان الذي يتلاقى فيه الجمهوريون والاشتراكيون لقد توارت مهمة الجمهوريين ردها من الزمن . إلى أن جاء اليوم الذي نجمت فيه جهود الخارجين على حزب المحافظين مع المعارضين للأسرة المالكة . من أجل النضال والعمل . وحشد القوات الخائفة وتموينها بعناصر جديدة من الشباب الطاهر . وفي ذلك اليوم أمد الحزب الجمهوري (هذا الحلف) القائم على سحق المبطلين والمستضعفين والهازيين بحقوق الشعب رجال عديدين ذوي أقسام وحزم وعزم وكفاية تؤهلهم عند الضرورة للقيام بالعمل الحاسم .

وفي الواقع كنت تلمس في الوجود تقليداً . بل تلمس ايماناً أو ديناً جمهورياً هو ذلك الذي اعتنقه شباب يوليو سنة ١٨٣٠ . وهو دين استمد قوه رهيبة من حماس نظرية العواطف الروائية المتأججة في صدور الشعراء والفنانين كما استمد هذه القوة من تفجر الشعور بمقدس الشهداء الذين راحوا ضحية المصيان الاخير واحكام المحاكم أو قضوا باقى حياتهم في السجون تنفيذاً للنظام البشع

الذى أتبع في إطفاء العصيان الذى وقع في سنة ١٨٣٩ . لجميع هؤلاء الشباب
والرجال والشيوخ كانوا وهم في اجتماعاتهم السرية المعجبية التي عقدوها في مغاور
جبل سان ميشيل وغيرها يستوحون إله الرقي والتقدم ويفزعون اليه أن
يسدد خطاهم في سبيل الخلاص وان يؤيدهم بروح من عنده حتى يحققوا الاخاء
والمساواة.

تحالف الاحزاب

كانت الحكومة الفرنسية قد بدأت تمطط على حرية التعليم . ولكنها
فشلت في هذا النوع من التحرير الفكرى . ولذلك فان أعداء الرجعة . الما
في ملك فخل فسدت حاشيته وتمدمت أخلاقهم . قد رأوا أن خير وسيلة
للاصلاح انما في تعديل قانون الانتخاب والدستور تعديلا يقضى قضاء مبرر
على حكومة الفرد والرشوة المتفشية في فروع الحياة الفرنسية .

لم تكن فكرة التوسع في حق الانتخاب العام حديثة . فخذ العمل بقانون
١٩ أبريل سنة ١٩٣١ قام الاحرار بمقاومته رغبة في سحق قيوده . فرجاله
حزب الامرة المالكة القديمة قد اقترحوا تخويل هذا الحق لكل داخ
لنصاب الصربية قيداعهم في دفتر الانتخاب منذ عام وبلغ من العمر ٢٥ سنة . وقد
أيدت صحيفة « غازيتة فرنسا » وصحيفة « لافير » هذا الرأي . ولكن
الصحيفة الاخيرة لم تكن منتشرة . أما جريدة الصحيفة الاولى فكانت وصيفة
للمزايدة لم تلح عليها شارة من اشارات الاخلاص .

وقد كان الانتخاب العام المباشر السرى جزء من برنامج « جماعة حقوق
الانسان » وانما كان ذلك لغاية نبيلة هي استئصال الفساد . وإبعاد النائب عن
أن يكون كما قال « تيليه » : « مفسار دائرته الانتخابية . إذا حضر جلسات

المجلس قائما ليتناول . وإذا انتهت الجلسة هيا نفسه لاداء مهمته . وهول
من وزارة إلى وزارة لأجياز مطالب ناخبه »

ولما جاء عصيان سنة ١٨٣٩ . وتكرر التأمر على حياة الملك خشي
أحرار الطبقة المتوسطة أن ينحاز الشعب إلى الفكرة الشيوعية . فنصدي
بعضهم لاقتراح تعديل انتخابي بقضى للشعب بامل التدرج فى الاشتراك فى
الحكم تناديا من الشيوعية . فلم يلج هذا الاصلاح هنا انه وسيلة من وسائل
الطهاج أو الخيال الواجبة لاهال . وإنما اعتبر واسطة تؤدي إلى توثيق عرى
الوفاق بين الشعب والطبقة العالية . ولقد جاش إذ ذاك فى قلوب القادة أمل
ظامض هو أن يكون الماران على الديموقراطية وسيلة إلى ابعاد الروح القومية
من تأليف أحزاب الطبقات . وباعنا على اجتناب تضالها . ومهدأ الأمة
بسرهما سبيل الرقى السياسى والرقى الاجتماعى .

فالطهاج الذى نظمته الحرس الوطنى إبان عصيان (سنة ١٨٣٩ — سنة ١٨٤٠)
فى سبيل الاصلاح الانتخابى . وفوز لدرو رولان فى سنة ١٨٤١ كانا مظهرأ
من مظاهر المقاومة لتلك الفكرة القذرة التى حلت فى مجلس النواب وأدت
إلى ازدواج حكم الفرد بالرشوة فوق المقاعد النيابية المقدسة .

كان حيزو والمك لويس فيليب هادئين أمام حملات الممارضة القاسية . فلما مسهما
لثما حملات هتيمية جاءت فى وقت غير ملائم . ولقد تصورأ أن احترام
الدستور لا يكون إلا فى انحياز أغلبية المجلس لهما . ومما لاشك فيه أن لويس
فيليب بعد حكم استمر عشر سنوات قضاهما فى العسر والخناص قد وصل إلى
أن يحكم بنفسه وبواسطة وزيره حيزو . حكما يرى معه أنه لم يرتكب ظلماً
يستحق عليه التعنيف . ولكن هذا الملك الذى أفلت من أيدي عشرة من
القتلة . وفل غارب العصيانات العديدة . وعرف كيف يستخدم وبدل هؤلاء

الذين ظفروا باحلاله محل شارل العاشر عقب ثورة بوليه سنة ١٨٣٠ . قد خال نفسه معصوما من الخطأ السياسى .

لم يقلق بال الملك أمام هجمات الصحافة الفرنسية وسبها إياه . بل كان مطمئنا كل الاطمئنان . وذلك لانه ما كان يقرأ غير صحيفة التيمس الانجليزية وكان واقفا من أعجاب أوروبا . ويقدر ان السلام العام الاوروبى انما جاء غرس يده . لذلك أبى أن يفكر فى تغيير طريقة حكمه وفى تأليف وزارته . حتى لقد صرح لمونتاليفيه بعد أن صارحه بخطر الموقف الذى سببه وزراؤه وسياسة حكمه قائلا : « إنك تريد حرمانى من جيزو . ولكن هذا الحرمان ليس إلا انزعاسانى من حلقى »

قاوم الملك كل نصيحة . وأبى الاشتراك فى أى عمل يقلق راحته . حتى ما كان منه متعلقاً بداخلية أمرته . ولذلك ساد البلاط خلال سنة ١٨٤٦ ذلك الخطر الذى شعر الناس بأنه يحيق بالملك من جراء الضغط على وزيره والحنق على نظام حكومى مشعوم . ولكن رجال البلاط عجزوا عن أن يقيسوا مسافة الخلف بين الشعب و الملك مع أنها كانت تتسع طولا وعمقا من يوم لآخر وقصروا عن أن يدركوا أن فرنسا الادبية والسياسية أصبحت بمزول عن حياة حكمومتها غير مكترثة على الاطلاق بمرشها ولا آبهة بمستقبله لما فى أعمال الحكومة والوزارات من افتئات على أقدم حقوقها

ومن هنا ينضح الاثر النفسى الذى يحدثه الاشتراك فى ثورة يقضى عليها نهائياً بالفشل كما ينضح أثر طول الانتظار فى الجهاد . فلما مال أثر الاشتراك فى ثورة خاسرة يعقبها تعاون مع العدو وساهمة فى توطيد أقدامه . وعمل على تنفيذ برنامج هذا العدو دهرأ طويلا كما كان شأن سعد ؟

تغلب الطبيعة على الوسط

هو أننا نستطيع أن نفرض جدلاً أن وسط امرأين كان من أرق أو ساطع خلق الله . وأن سمداً لم يرم . أحضان الانجليز طوال جبل من لزم تكون فيه بشكل خاص . ونساء ماذا كانت تكون . الآثار المترتبة على جبلته . وغريزه الجوهرية التي انتقت اليه من والده العمدة ؟ لقد أثبتنا علماً بما تقدم أن هذه الغريزة لا بد وأن تسكشف في يوم ما إذا ما أخرج الإنسان أو استثير أو أطلقت يده بعد حجر وأسر . وهنأرى أن التنبيل أفضل في النفس وأفضل في إقناعها بالحقيقة

تلميذ

قال لما المسيو هنري هـ سبه عضو الاكاديمية الفرنسية في كتابه « أثينا وروما وباريس » (ص ٤٠٠ وما تلاها طبعة سنة ١٨٧٩) : « إن الخلف يصدر احكاماً نهائية . ولقد برأت عدالة الاجيال الامبراطور أغسطس الذي سما بالدم وقضت على تيبير الذي سقط بالدم . ولا قبل للاماجيب المتراصة عن أممحد العبقريات وأقواها حجة على أن تنقض حكمها . وليس المسيو « بوليه » بقادر على ذلك وهو الذي أراد بدراسته تيبير أن يرد الاعتبار العام إلى خليفة أغسطس ورائده الطريقة التي اتبعها مونيسكيو ، وهو يقارن بين تيبير ولويس الحادي عشر حتى ختم المقالة لمصلحة رجل روما ولكن « بوليه » قد أيد رغم ذلك نظرية جذابة . هي « أن القضاء والقدر الذي أنقل كاهل أبطال المأساة الاغريقية القديمة قد أبهظ منسكب تيبير إلهاماً أشد . وهذا القضاء والقدر هو التركة التي خلفها أغسطس » وبعد أن شرح المسيو « بوليه » أخطار السلطة المطلقة التي تحيق بمن ينشئونها طفق يدال على صحة رأيه في برهان فاقت فصاحته قوة

أقناعه . فقد ذك تدير طفلاً وشيخاً . وكهلاً ورجلاً . وصورة لما من أوتاه آ
وقائداً للجوش . وذليلاً منقاداً لسلطان أغسطس . وفصلاً وئراً . وراشاً .
وقاسياً في أحكامه بعد تنويجه . وظالماً مجنوناً ووحشاً ضارياً قبل موته .
ولقد تتبعه في أسبانيا وجرمانيا وفي رودس وبرنونا وفي القوروم وفي جبل
بالانان وفي حدائق موسين ومغاور جزيرة كابريه . وفي كل مكان . وفي كل زمان
وفي كل مناسبة ظهر فيها تيبير فريسة سلطانه .

« ومن الواجب أن نناهض نظريات المسمي بولييه بالسلطة التي تقدمها إذا
كتابه . انه يقول : « لقياس الاثر المترتب على السلطة المطلقة في رجل مفروض
فيه ان السلطة أنشأته أميراً وهو با ذا ذكاء واسم . حازماً مثقفاً . مستعداً
من جنس عظيم . سماً تكوينه العقلي والبدني . ونخلق بخلق فارد . وامن شكل
صحة لا يتبط في السها الضمضض . وكان جندياً اسلاً وقائداً ماهراً وادارياً كفماً
تحيط به حاشية طيمة . وتؤيده نصائح أمهر الامهات وأمكرهن . وانشد الحظوظ
أزره في أغلب الاحايين . يندفع بلا جهد نحو العظمة . ونبتت حياته الاولى
بجانب السلطة المبالغة . ثم زاو لها عملياً . ثم عدل عنها . ثم استولى عليها في سن
النضوج . وانتهى به الامر وهو في سن السادسة والخمسين إلى أن ساد العالم .
فاذا كان هذا الرجل قد فسد شيئاً فشيئاً . وخار رويداً رويداً . ثم تحول حتى
أصبح في يوم من الايام ملموناً من الانسانية . وموضع كراهتها . فان المثل
يكون حاسماً والبرهان التفصيلي يكون كاملاً » نعم ان البرهان كامل .
ولكن المثل ليس حاسماً . إذ يمكننا في سهولة أن نقابل مثل تيبير بمثل يناقضه
تماماً . وهو مثل سلفه أغسطس . فاذا كان حقاً أن تيبير قد فسد تدريجياً
وتحول حتى أصبح ملموناً من الانسانية وموضع كراهتها باستخدامه السلطان
المطلق فكيف يكون « اكتافيوس » بمزاولة هذا السلطان المطلق نفسه قد

صالح تدريجيا ونحول حتى أصبح أبا الوطن ونموذج الملوكة ؟ فهل السلطة المطلقة كذلك الينبوع الساحر الذي تحدثت عنه الاقاصم من الفارسية ومن شأنه أن يهب الطيبة الابدية أو المرض العضال تبعا للاستحاج فيه عند شروق الشمس أو غروبها ؟

ومع ذلك فهل تيمير كان قبل تنويجه الرجل الكامل الذي زعمه هذا المبرهان ؟ ان التاريخ ينكر ذلك ، اما ان تيمير كان على وسعه من الذكاء وعلى تكوين حسن عقلا وجسما . وشجاعا وقائدا ماهرا فهذا ما سلم به . ولكن هذه الصفات لا تستلزم أبدا أن تقتن بقيمة أدبية . ولا بكفاءة أساسية لحكم العالم . لقد انحدر تيمير من جنس عظيم . ولكن أسرة آل كرد قد اشتملت على الابن الرحيم ، والشیطان الرحيم . فمنهم من أثار حماسة رومان بعد أن دحرهم بيروس . ومن طرد جنود فرطاجنة من صقلية . كما كان منهم الوحش الذي قطع الصلاة بين مجلس الشيوخ والشعب . ومن حاول مستعباد إيطاليا . ومن فقد أسطوله . ومن نفى شيشيرون وأجرى الدماء في شوارع روما . فتييمير الذي كان إلهه الشيطان الرحيم كان في وسعه أن يقلد في سبيله ، فهل كان اداريا ماهرا ؟ من السهل أن نقيم الدليل على العكس إذا نحن أثبتنا ان يده لم تتدخل في جميع الاصلاحات والتجديدات التي تمت أيام حكمه . ولا في التوسع في تطبيق قانون الاعتداء على مسند الملك وجعله شاملا الاحوال السياسية بعد ان كان قاصرا على الشؤون الدينية الخ . الخ . وانما هي اقتراحات ليفيا وميجان التي أدت الى كل ذلك . بل هي اقتراحات ليفيا على الخصوص تلك المرأة التي كانت بمثابة كاترين ده ميديسيس الرومانية . بل انها بنت اللورانتية . وكان لها اكبر الاثر في نفس أغسطس وتيمير . واستمر نفوذها كذلك في الحكم الامبراطوري بعد أن أسست الامبراطورية . ان ليفيا كانت الشيطان المؤسس

للمبدأ القيصري . والثورة الساحقة الماحقة للنظم والحريات الجمهورية .

فاذا كان تدير قد أظهر بعض الخلال الحميدة في أول فترة من حياته فلان الخوف من أغسطس وليفيا قد كبح جماحه . وليكنه عند ما شمر بالحرية أطلق الننان لذائله ونقائضه التي اعتقلت طويلا . والحرية لم تأت إليه إلا في آخر أيام حياته .

فمنذ ما خلف أغسطس لم يتغير الحال إذا التغير انحصر استبدال سيد بسيد آخر . فقد سل تحكم ليفيا المتهمكة محل سبادة أغسطس . وإذن فتغير لم يكن هرا . ولم يحكم بنفسه إلا بعد موت أمه . وبعد القصاص من عشيقها الفادر . ولكن آخر أيام حكمه . وهي الأيام التي امتازت بأوراق الدماء اهراقا فظيما وتلطخت بأفجع عار . كانت أيام حكمه انخاص .

فالمرأى الجنونية . وأحوال الفعش في جزيرة كبريه . هي من فمها انخاص ولا دخل لاي كان فيها .

فهذا الرجل الحسود الحقود الجبان المنافق المتردد . الوضع في نزقه المتجرد من القوة بقدر تجرده من الفضائل الادبية . هذا الكلب الذي خضع لآغسطس في ندالة . وتحمل في أناة وصبر وذلة شخص زوجه . وقسوة الامبراطور والنفي الى رودس ظله . ورصد يمينه . يمين القائد على خدمة امبراطور لو شرفه بالاختلاط بجورليا . وكان في الوقت نفسه يقسو عليه . وهذا الظالم الرعديد الوحش الذي كان يكبح جماح غلظته ووحشيته . وشهوته الغريزية وكثيرا ما كان يشعر بنير ليفيا وسيجبان قد أسرع بعد موتها الى الاندفاع في هاهية من أحوال الجرائم والفعش تاركا الحكومة . نابذا مجلس الشيوخ الخالي من نصف أعضائه . لاهيا عن تعيين قواد للجيش المتطوعة . وحكام الالاقيم . ساهيا

عن الدافع عن أرمينيا ضد البارث . وعن ميزيا ضد الداس . عن الحول ضد
- الحرمان هذا الوحش المتأنق في بربريته كان يرغم الحلابيين على استلاب
عفاف المذارى قبل اعدامهم . واذا انتحروا سجين حتى لا يأسى وسائل
التعذيب الامراطورية المبتكرة صاح : « لقد قرمتى كالمدرس » فهل هذا
الرجل يبرر قول المسبو « بولييه » : « أن تدير لم يكن وحشا . ان تدير كان رجلا
مثلنا . وموهوباً كثر منا » ؟

ان عظماء المجرمين يستطيعون أن يبرئوا أنفسهم في سهولة كبيرة اذا هم
استخدموا كلمة أثقال الماضي التي تذهب جفاء وفي لمح البصر أمام كلمة عقل .
واذا نحن نلونا خاتمة كتاب تيبير . لوجب علينا توأ أن نذكر زابني فسبازيان :
تيتوس . ودومينيبيان . اللذين عاشا زماناً واحداً ورباهما أستاذ واحد وكان
كلاهما ولي عهد مباشر أعداء ليحكم شعباً واحداً . ومع ذلك فقد استحق كل منهما
أن يلقب بلقب مختلف عن لقب أخيه . فتيتوس قد لقب « بهجة النوع الانساني »
وأما دومينيوس فللقب « طار الانسانية وموضع مقتها »

فتركة أغسطس ليست هي التي جعلت من تيبير ظالماً ممتوتاً . وإنما طبيعته
الوضيعة الحقود القاسية . حتى لقد قال فيه تاسيت قبل أن يعرف أثقال الماضي
« وفي النهاية قد تردى في الجريمة والامار مما في وقت واحد عندما زاول طبيعته في
حرية » وأبعدت عنه وسائل الجريمة والعار »

فالغريزة إذا ما انطلق عنانها أو استنيرت وأرتفع الرمال التي من فوقها .
تجلبت بمظهرها الحقيقي . واتضح جوهر الجنس في عملها . أما مفعول الوسط .
أما التربية فهي كما قدمنا « وسيلة صناعية في مبدئها . تخلق فينا طبيعة
ثانية تلوح في نظرنا أنها امتصت الجوهر . وجبته . ولكنها لاتصل إلى هذه
القوة في أغلب الاحيان . فكم من رجال تحلوا بهذه التربية ولكنها لم تجتث

غير نراهم . فهي أذرى ليست لإدھانا لما طابھار فتینا عند أول صدمة . لظھر الطبیعة
الاصلیة بنھما وورحشیتھا . أو فناءھا وفضائلھا . وانقد یدھش الانسان
أحیاناً من أن یرى شھوبا بلغت أقصى حد فی المدیة والوداعة والانسانیة
والخیر ابان سیادة الام ثم هی لا تلبث أن تقلب عقب اعلان الحرب أو عند
اصطدام مظامھا بخفوق الضعفاء وحوشا كاثرة . تهبط إلى آحط دركات القسوة
والوحشية . ولكنه إذا فسكر ملیا وعلم أن الحرب ما هی الاھود لمبدأ
الخلیقة . وسیادة الحمجیة والوحشیة . وما وظیفه هذه الحالة إلا ان تبعث تلك
الطبیعة البشرية المتلاعة معها . والسابقة على أى ثقافة ونخرجھا من إمكانھا فی
حماسھا . ربطولتها . وعبادتها للقوة والمطامع الاشعبیة ولذلك قد حن قول
كارل لیل : « لیست المدنیة إلا غلافا لستر طبیعة الانسان وهی تحترق بنار جهنمیة »
وهكذا كانت حال سعد . فهو یدأ ویستسلم إذا ما عجز . وبثور إذا ما اشتد
وقوى . أما إذا أغضب وهوى قوة فانه كان اللبث یعتدى ولكن على العزل
والضعفاء واستسلامه واضح فی مفاوضته . وثورته ظاهرة فی معاملته معارضیه
فخبرته هی اللى تتحرك رغم الطبائع المكتسبة . ولا تتحرك إلا إذا اعم وتحرك
من أى قید . فشھوره بالحرية أطلق العنان لذائله ونقاأصبه اللى اعتقلت طوبلا
والحرية لم تأت الیه إلا فی آخر أيامه اللى هوى فیھا بالامه الى درك من الاستهانة
بالحقوق وامتهان الكرامة ولا دخل لا تقال ماضی الامة فی كل ذلك .

نیرون

إنك إن قلبت أى صحیفة من تاریخ نیرون تدفق منها الدم حتى خنقك . فلا
تعد تبصر إلا أھمر . ولا تسمع إلا استعانة . ولا تسم إلا نذناً ولا تحس إلا
جھوداً وتحجراً . ولا تذكر إلا كلمة لا منیه : والا ان التاریخ لأ طول محضردون
غیه تعذیب الانسانیة »

ولتبرير أعمال هذا الخليفة، والممثل المضحك الوضيع الذي حمل فوق رأسه
 تاج روما قد اتجأ المؤرخون إلى السلطة التي أسندوها إلى أفلاطون حيث
 قالوا « ان الجرايم التي امتارت بالاستبداد والوحشية لا يتكبرها رجال من
 ذوي العقول بل تنسب على نفوس قوية كريمة أسندتها التربة . » فهم اذك
 يستندون على الناحية الطبيعية لابن « اجريبين » . وهي طبيعة أسندتها تربية
 عميقة ثم يسيرون إلى ما تحده السلطة المطلقة من عمى ، ذهول عن الصواب -
 وينكرون سبب وجود الدولة ذلك المعبود الجامد الذي ربد التضحية عن
 طريق قيام الجائر في كل ناحية . ثم ينتهي بهم الأس إلى أن يلغوا بئس حراشي
 نيرون على مستشاريه . مثلهم في ذلك مثل خصوم أغسطس وحساده الذين
 يستندون ككيات أعماله إلى انتكارات وزرائه . وقد استهوا للمؤرخون
 أيضاً في كتاب غالبا والذين يرمون في وضعه لتأييد حمل القضاء ، القدر الذي اخذ
 كامله . وهذه الكلمة هي « لانك أنا واجريبين لا وحشاً »
 لقد دلت نيرون بأعماله على صحة نبوءة والده . ولكن هذا هو العالم يكن
 محققا في التنبؤ بها . لانه إذا كانت اجريبين زوجه بنت جرمانيكوس هي التي
 قال عنها ما في كلمته من ممان . فليس هناك من سبب يدعو إلى أن يكون نيرون
 هو ابن اجريبين دون غيرها . ومع ذلك فاذا كانت الفضة فضيلة جرمانيكوس
 قد ولدت الذيلة . ذلة اجريبين . فلماذا لا تلد الذيلة فضيلة ؟
 أما فيما يتعلق بتربية نيرون فقد وجب أن نتحرى الحقيقة حتى نعلم ما اذا
 كانت قد ساءت بالدرج التي أشير اليها ولد للمؤرخين وصفها أم لا ؟
 ان نيرون الذي انتزع منه كاليجولا ميراث والده قد بقي الى سن الماشرة
 في حضانه عمته « ليبديا » دون أن يهد بامر له الى حرب أو استاذ غير حلاق
 ورقاص ولقد عوده بعد « ليبديا » حياة اللواخير وملذات منازلة
 الوحوش في المسارح حتى انطبعت تأثرات الطفولة في أعماقه انطباعا قاسيا .
 إذ اضغظ الامبراطور نيرون بأذواق ابن اجريبين الصغير .

فالمائدة ومسرح الوحوش بقيا أداة لهواه ومسرته. واستمر ظفره الذي أبعد مطمح وأقصى مطمح. ولكن هذه التربية التي تعلقت بالرياح والمصادفات قد انتهت بزواج اجريبين من كلود. وفي سن الحادية عشرة كان نيرون استناد جديد هو الفيلسوف سينيكا.

فهل كان هناك أكفأ من سينيكا تهذيب قيصر الذي تذكرينه وأعداده لممارسة السياسة؟ وهل كان محققاً ذلك الذي قال إن تربية طفل على يد هذا الفيلسوف كانت تربية فاسدة مشرمة؟ إن معلومات نيرون كانت تنهض دليلاً على عكس ذلك. فقد كان على أتم تثقيف وأكمل تعليم. مولماً بالإنشود. مفرماً بالآداب. حتى رأيناه في الخامسة عشرة يرتدى ثوب الحمامة ويترافع باللاتينية عن البولونيين. وباللواتينية عن سكان رودس وترواده.

وإذا نحن صدقنا تقليداً من التقاليد الرومانية علمنا أن الرومانيين قد أسفروا على نيرون وهم يذكرون أمداً طويلاً لانعمة الخمسة الأعوام الأولى من حكمه حيث ساد الهدوء. وسمت العظمة. ولكن هذا التقليد لا يشرف الرومانيين فإذا كان الامبراطور الجديد قد وعد بأن يسلك سنة أغسطس ويحتذيه مثلاً في أعماله. وإذا كان قد رفع عن عوانتهم شيئاً من الضرائب. وسن قوانين تحتم الاقتصاد واجتناب الترف. وإذا كان قد طاون أعضاء مجلس الشيوخ الفقراء بماله الخاص ونفذ مشروعات عظيمة في المدينة. وإذا كان قد أمضى حكم اعدام وهو يقول: « لقد كنت أريد أن لأعرف القراءة والكتابة » فإن كل ذلك لا يمكن انكاره. ولكن يجب أن لا ننسى أن أول عمل من أعمال حكمه كان قتل سيلانوس ولا جريرة له إلا أنه من أقارب « كلود » وبمد ذلك بأقل من عشرة أشهر أمر بأن يتمجرع برينانيكوس السم أمامه. وهو شقيق

زوجه وابن والده بالتبني وصهر والدته . ورفقه في الطفولة . وقبل أن تنتهي
الخمس السنوات الاولى من حكمه كان قد أعدم أمه أجريبين . فهذه السنوات
الخمس قد بدأت بالقتل وانتهت باستباحة دم الام . وهذا هو مجد هذه الفترة
لم يكن قتل أجريبين بول خطوة قطعها نيرون في سبيل الاجرام . ولكنها
كانت أجسم خطوة وأبشعها . فنذ مأساة « ناي » لم يعرف نيرون أى قانون
ولم يعترف بأى قانون ولم يخضع لأى احساس انساني . ويلوح انه ذعر من هول
هذا الانهم الغالب . فإراد أن يدعو ذكره بارتكاب آثام جديدة لتذهب ذكرى
أحداها في طيات ذكرى الاخرى . ففعل يده التي لوئتها دماء والدته في بحر
مسيحور من الدماء . وهكذا بدأت سلسلة فواجع نيرون . وهي مأساة قامت على
قاعدة : « نى اقتل فاذن أحكم » . ولقد اعدم اربعمائة عبد برى في يوم واحد .
وسم يروس . وذبح سيلا وبلوتوس . وخنق البائسة كلوديا في حمام ساخن
بعد أن طلقها واتهمها بالزنا . والتي الى الوحوش قطعاً نال من المسيحيين . واستخدم
ثلاثة آلاف شهيد . كفنوا أحياء في ثغافات دهنية في إضاءة شرفته المسرحية .
وعذب الممثلة المضحكة ابيكارليس حتى ماتت . وطوح برأس لاتيئوس . وانتحر
بيزون وسينيكا بقطع الوريد . وقطع عنق سوربيوس . وسولبيسيوس . واسبر
وكنتيانوس . وسيفينوس . وسنسيون . أما الشاعر لو كان والقنصل فستينوس
فقد قطعت أيديهما وأرجلهما وترك الدم ينزف الى أن ماتا . وقتلت بوبيا
وهي حامل بلسكرة من قدم . وقتل سيلاوس . وانتحر أنزيوس .
وبيت اوستوريوس بيده الخنجر في صدره نفسه . وأغرق سيريالوس وكوسمينوس
وميل . ومات تراسيانوس وبترونيوس في الحمام والشرابين مقطوعة تتدفق منها
الدماء . وأعدم انطونيوس . وكذلك بولس وصاب بطرس . وأغمد كويولون
سيفه في أعماق ذاته . ومات الأخان سكريبونيوس معاً . وقتل كرسوس . وفي

النهاية جاء دور نيرون نفسه . فقد خاف أن يهمل نفسه ويصطفيه ويصادفه كالطير الجارح حتى تعب وانكسرت حرم الماء والغذاء . ولما فقد شجاعته أمام الموت سأل بعضهم أن يقتل نفسه كي يتشجع ويقدم على الانتحار وهو الذي رأى على أعينه كيف نفذت أحكام الإعدام التي أصدرها . ثم قضى الأمر وبنت الخنجر في صدره بمعاونة ممنوكة « ايبا فروديت »

نقد كان نيرون جديراً بموته أبشع من هذا الانتحار الذي أرغم عليه . أنه كان خليقاً بأن يقاسى العذاب والعار الذي قضى به عليه مجلس شيوخ خليفته الإمبراطور « جلبا »

ولكن موته جاءت عنوان حياته . فقد قضى كما عاش . مجرداً من الشجاعة ومن الإرادة . بيد أن من الواجب أن نقر بأن نيرون كان في كل ذلك خاضعاً لسلطان خارجي دون سلطان نفسه إلا أن هذا لا يبتقص من بشاعة أعماله إن نيرون . هذا الحاكم المستبد المطلق . لم يعمل إرادته إلا نادراً . فقد كان خادم معطام الجحيم وشهوات الجميع . وليس هو الذي أنشأ القاعدة القاتلة « القتل هو الحكم » ولكنه طبق هذه القاعدة دائماً أبداً في خش لا يبرح للضمير وخزاً ولا تأنيباً ، وماذا بهم والضعف أخش الاغلاط التي يرتكبها زعيم أو ملك . فسواء ارتكب نيرون جرائمه لحساب نفسه أو بتأثير أساتذته ومستشاريه فانها ارتكبت باسمه وهو المسئول عنها أمام الخلف المنتقم

هكذا قال « هنري هوسيه » في كتابه « أتينا وروما وباريس » عن نيرون (ص ٢٠٧ وما بعدها) وهذا أقل ما يجب أن يقال في سمد . مادامنا لنجد في كل صحيفة من صحف تاريخه دم أفراد أو نبتن أفراد . وانما نجد دم أمة أراقه . وحياة أمة أزهاها . ونبتن أمة ملأ الأجواء . وأفسد الهواء . وقد كان أقدر الناس على اجتذاب العمل على كل ذلك منذ الساعة الأولى لظلمته

لقد انشدر سعد من حمدة . وتربى في وسط الكتاب ووسط القرية خلال
 مهدي سعيد واما عيل . ولما بلغ السادسة عشرة من عمره اندمج في وسط
 الازهر . ومهما كانت مقدرة الشيخ المهدي العباسي . ومهما كان سلطان الشيخ
 أبو النعما الشراوى . ومهما كان سحر الشيخ محمد عبده . فانهم جميعاً ما كانوا
 يستطيعون أن يغيروا غرائز سعد . واقدوقوا أمامها طاجين كاجز سينييك
 الفيلسوف عن تغيير غرائز نيزون فهذا شب حلاقا يقص الأوردة والشرابين
 وينزع الارواح . ويجز الرقاب . ويملن أن القتل هو الحكم حتى انتهى به الامر
 إلى أن رقص رقصة المذبوح . وذلك شب حمدة وفقى . بحارب سيف ذي
 حدين يقبض على سنه فيدمي يده ولا يصيب غريمه . يفتى الفتوى بهرجا وزيفا .
 ويلبس الحق بالباطل تضليلاً وغاية . ويترجم عمله عن أن الحكم هو التخريب
 والهدم . والسيادة هي استغلال النفوذ والقاء المعارضين تحت الردم . حتى
 انتهى أمره إلى أن أصبح وجوده زهو وابطالا . وأمسى الزعيم كذباً باعاطالا ومعتلا
 بجراً البعض على أن يمشى إلى الناشئة على غير استحياء . ويسمى اليهم على خشن
 لاليعنهم وأما ليخدعهم بأن سعدا كان نخر مصر في ناشئته الاولى . وفي عهد
 كرومر . وفي أيام مصطفى كامل . وقبل الحرب . وإبان الحرب وبعدها . كبرت كلمة
 تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا . فما كان سعد في ناشئته الاولى إلا
 سهما رشقه المراهبون في قواد مصر . وما كان بعد ذلك إلا شتوما على مصر .
 رأيه منكود . وفكره مردود . وحجته على هامة مصر كالسيف . وبرهانه على
 الامة حيف . كان للاحتلال نصيراً . وبأعلان الحباية ناصحاً ومشيراً . ولاستقلال
 مصر نكيراً . ولحريتها ساحقاً . ولسكرامتها ماحقاً . وإذا كان قد قضى في
 القضاء دهرأ طويلاً بعيداً عن أن يظهر في ثوبه الخلق . وعادات النفاق والملق

فلأن للقضاء كرواً خاصاً. لارقابة فيه إلا الذات على الذات . وإلا للضمير على الضمير .

إن سمدالم يقتل شيوخا ولا نوابا . ولم يرد أصدقاء ولا أحبابا . ولم يهدم أنصاراً ولا أعداء . ولم يكفن ثلاثة آلاف مصري بلفافات من الدهن ليضئ بهم مسرحه . أو يستصبح بهم في ليله حتى يزداد سروره ومرحه . ذلك بأنه كان أجبن من نيرون . ومن كان أجبن من نيرون يستحي من أن يقتل الناس فرادى بالسلاح ويستحي من أن يقابل عنه وهالاتفاق مع أرلندا والهنود والكماليين . وانما وسعه أن يقتل أمة بالورود ورياحين وبالنفود دون السكين . فقد نثر الورود على الأمة حتى خنقها . وكفنها بلفافات من ورق البنكنوت الذي تبرعت به في سبيل انقاذها . وأضرم النار فيها لتضيء للسبيل أمام الانجليز . ويحتاج كل عقبة في سبيلهم حتى تهتدي خطاهم إلى تحقيق آمالهم . وتسرع في تنفيذ مشيئاتهم .

ولكن سمداً إذا امتاز على نيرون بأنه خلق أمة بسحر ضلالة . وإذا اختلف عنه بنهومة وسائل وحشية . وإذا فاقه في حبه وفقدان شجاعته وانعدام ارادته . فقد اجتمع معه في أنه كان متأثراً بسلطان غير سلطانه . وضمير غير ضميره . وارادة غير ارادته .

لقد دفعه صهره مصطفي فهمي وهو على رأس لجنة تأسيس الجامعة إلى أن يتركها حتى تهدم فتحي ليكون وزيراً ودفعه دنلوب إلى مطاردة العلم حتى يستحق . وإلى مازلة اللغة العربية حتى تحقق . وبذلك حال دون انتشار العلم وحصر المتعلمين في دائرة ضيقة يمكن إغواءهم بالوظائف واضرام هجرة المطامع في صدورهم مع أن أمة محتلة يجب أن يخرج شبابها ورجالها جميعاً على وجودهم حتى يكون لهم وجود وكيان . ثم استفزده رشدي وعدلي فيما بعد ليكون زعيماً .

واقفاده الانجليزية النهاية حاكما بأمرة.

لقد خلق سعد زعما بخدم . فخطم المهنوى بكافة فروع . فى أيامه بدأ تصايف الارادات حتى سقطت : تهدم الخلق حتى اتهدم . وتراخت الفيرة حتى ألعدمت . وباء الاستقلال بالخسران حتى أمسى هباء . وقديما بدأ وزارته فى الحقانية بهدم الحرية عندما أيد تنفيذ قانون المطبوعات سنة ١٩٠٩ فى شدة وقسوة . ووضع قوانين الاتفاقات الجنائية فى سنة ١٩١٠ الخ وفى عهد زمامته احتفل بدفن الحرية تحت ستر حرية المظاهرات . وبدفن الضمير بسطة الرقابة على القضاء . فهو المسؤول عن كل ذلك أولا وأخيرا أمام الخلف المنتقم . فهل يصح لنا أن نقول بعدئذ أن سعداً كان الرجل السياسى والوطنى ؟

ماذ اكان سعد ؟

لا يمكننا أن نمثل سعداً إلا بهيروسترات . فكلما جن بالشهرة دون العظمة فنذ ٢٢٩٥ سنة ارتكب هيروسترات جريمة من أفظع الجرائم هى أضرام النار عمداً فى معبد « ديانا » الالهة اليونانية بأيفيز . فمن كان هيروسترات ؟ ولم أضرم النار فى هذا المعبد الا ترى العظيم ؟

يقول المؤرخ وفاق روح الاسطورة أن هيروسترات كان عبداً أو اجيرا أو ممتقاً أو رجلاً فامضاً حامل الذكر . نهش نفسه التعطش القاسى للشهرة ولما أعيتته الحيلة ولم يستظم أن يكشف عن وجوده ما اسدل عليه من حجب الظلام وضما من كده وجهوده المتواصلة . أخذ يتطور من رغبة إلى رغبة . ومن أمل إلى أمل . ثم من خيبه إلى خيبة . ومن يأس إلى يأس حتى استولى عليه جنون الكبرياء وذهول الثورة فى سبيل تحقيق المظلم

لقد وقف هيروسترات إلى جانب المعبد وأخذ يناجى نفسه : وينبها

شكواه . ويذكر آلامه . ويشير آماله الخائبة . وأمانيه الفشيلة . ويخبر مقامه الحاقدة . ثم أنشأ يفكر في أي عمل . وأي منهج . وأي مسلك . وأي جنود يمكنه من تحقيق مقامه وإحراز شهرته . وإذاع شهرته . وبينما هو كذلك استوفقت أنظاره عظمة المعبد وأطاشته روعته . ثم استغواه الشيطان وصاح وأزمه الكلب ترعى عقله كالمألوق : « لاربطن اهبي بحريق معبد ديانا » . وقد كان ذلك والناس يترغنون مع الكهنة بمدح هذه المعبودة . ويرتلون آيات عظمتها ومجدها وإحسانها .

ولما جاء الليل وخرج الناس من المعبد يفسلون . كشف هيرو سترات عن خبيثته نفسه . وانزلق تحت جناح الظلام إلى بيت التقوى واللاح يعبت ويبدد المشعل . وسرمان ماغشى الدخان المعبد . وزعجرت عواصف النيران . وأخذت ألسنتها تعبت في كل مكان . فكان كل شيء طعاما بشماتها . وتداعت العمدة وخرت . وتساقطت السقوف فوق أنقاض الحوائط . ونمت الجريمة . ولم يبق داخل المعبد غير الذكري . ولم يظهر من الخارج غير أكوام وأطلال من الركام . ووقعت أجواق القسوس في يأس وحزن ترنل أناشيد الالهة وهي تسبى المعبد . وطبق المتعبدون يكون لله أمر الانتقام من المجرم على فعلته الشنعاء .

ولكن انبوليس التي القبض على المجرم دون أن يعالج فراراً

لقد قام مهمته . وماذا مهمه من الحياة . وقد أصبح خالداً .

وعندئذ اجتمع مجلس الولايات الايونيونية . وعذب هيرو سترات حتى

يفصح عن بواعث إثمه

فأجاب هيرو سترات في كبرياء وعجرفة . انه اقترف جنايته حتى يبقى أبداً الدهر ذائع الصيت والشهرة فحكم بالاعدام على المجرم الانيم . وقبل التنفيذ أتى عليه المرسوم الذي أصدره البرلمان (الدييت) قاضياً بحكم الاعدام على من

يذكر اسمهم ويدور سترات اللعين أو يشير اليه . فبم أجاب على منطوق قضائه .
وأي نشيد أعلن به فاحش خلوده ؟

لقد حكم بالاعدام على المجرم ولم يكنه لم يندم . بل فاحش بجرمه العظيم .
وياهي بائه الشنيع . ونوسم أمام قضائه ان الزمن سيضرب حكمهم بهيف البطلان .
وجعل يقول : « لقد العلم اسمى الآن بحروف من نار على خرابات معبد ديانا .
وستمضي القرون الطويلة وايقز الجميلة قاعا صنفها . وساحلا بلقمام هجورا آمنبوذا
ودياناتهم على وجهها في كل مكان خارج معبدها . وسأكون خلال هذا الزمن
ذلك الشهير الذي ارتقم اسمه فوق الاسماء وارسم بحروف من نار في كبد
السماء لينير الاكوان والاجواء . وستبقى ذكرى هير وسترات طالما بقيت ذكرى
معبد « ايفيز » وذكري « الآلهة ديانا » وذكري أرض الاغريق القديمة

وهكذا كانت حال سمد . فالمرور وائق كل لحظة بأنه لم يكن إلا
آبن صعدة تولى العمدة في عهد الاستبداد . ثم نخرج من الازهر أيام
انحطاطه العلمي فهو اذن نشأ فامضا خامل الذكر . ولكن السحارة من الشيخ
ابراهيم زغالول قد جعل فيه نوما من الطموح الوحشي تكبح جماحه قسوة الجبن
الذي أثقل ماضيه . وقد أضرم نار هذا الطموح الكسير الحزين اختلاطه
بالعرابيين الذين لم يعرفوا الثورة للفكرة وانما للوظيفة والمنصب فنش هذه
النفس الجبارة الخوارة تعاطش للشهرة فاسق متشرد هربيد هدام فلم يستطع سمد
أن يرفع عن وجوده ما أنسد عليه من سجون سوداء غمما من كده وجهوده
المتواصلة . وعندئذ أخذ يتناول من رغبة تتحقق ثم تخيب . ومن أمل يستطع
ثم يزور ويغيب ولما جاء دور الجمعية التشريعية بعد ما يشبه الاقالة من الوزرة .
لحق يتنقل من خيبة إلى خيبة ومن يأس إلى يأس إلى أن دفعه عدلى ورشدى
إلى قيادة الثورة وهو غير أهل لها وماجز بحكم الزمن وعلمه وتجاربه عن ادارتها

غأجاءه جنون الكبرياء والعظمة وذهول الاهتياج في سبيل تحقيق المظلم .
 لقد وقف سعاد إلى جانب مصر وجعل ينادي نفسه وبشها شكولها .
 ويشير ذكرياتها وبنواها . ويردد آلامها ومناها . فيحرك الشجن خواطر أيام
 الحزن . وبؤجج الحزن نيران الاحن . فتخبو مطامعه الحانقة وتخونه . وتعلو
 السكابة وجهه . والغضب يتفجر من عينيه . وهو في بحر لجي من التفكير والتدبير .
 التفكير في العمل . والتدبير في سبيل المسلك المؤدى إلى تحقيق الغاية والمقصد .
 وما هو إلا أن أصيب بجنون ظن انه أسهل وسيلة إلى إدراك الامل . واجتناب
 القشل . واذاعة الصيت . وكسب الشهرة .

لقد استوقف نظره الجمع الحاشد من حوله . ظالم رجالا يشدون أزر حوله
 وطوله . وطلق يسخرهم حتى حملهم على أن يتقايؤ واقعهم ليرضوه ويستقرغوا
 كرامتهم ليرفعوه . ويبذلوا حياتهم لينقذوه . وخلق لهم من نفسه صنما
 معبوداً . ومنهم أدوات وجنوداً . يسخرهم في لهوه ولعبه . ويستعين بهم على
 إرضاء حنقه وغضبه . ولسكنه تصور مع هذا الخضوع . وتوهم مع هذه الذلة
 والخنوع . انه لا يأمن شر هذا الجند المستضعف إلا أن يغالبهم على غرة
 فيغلبهم . ويصارعهم غلة فيصرعهم . وكاننا به وقد صاح « فلتمت مصر ولا عش
 أنا » وهذه أعماله ناطقة كلها بهذه البديهة

وبينما أغلبية الناس يترفعون مع السكبان بمدح هذا المعبود . ويرتلون
 أناشيد عظمته وعجده واحسانه وبينما انجلترا تطلق دخان سياستها حجباً لتسندل
 على الحق . وبينما رجاله يجمعون من شدة الاعياء ترتب على مجاهدته النفس
 في اقامة شمائر الولاء وفروض الطاعة اسعداً . وإذا به يخرج ويده المصباح
 الخافت ليصيب الزيت منه على أجساد أمتة وكأنه يباركهم . ولكن لم يمض
 زمن يسير حتى غشى الدخان سماء مصر . وزحزحت عواصف النيران وأكلت

السنتها كل مكان . فتداعت العمدة . وانقضت على النفس وتساقطت السقوف
على الانسان والحيوان . وراح كل شيء طعمة بشعة الهول وتمت الجريمة ولم
يبقى داخل مصر غير الذكرى . ذكرى الاطهار طالبا بالاستقلال واجلاء الاحتلال
ولقد خط سعد على وجه من قبر مصر العام . « هنا نقيم أمة كانت حية
في سابق الأزمان » وعلى وجه آخر « أبد الامة التي تنق بك تسد وتحكم »
وعلى ثالث « اجعل من أصهارك جلادين . ومن أنصارك سجانين . ومن
معارضيك شهداء » . وترك الزعيم خالبا ليسطر عليه « هنا دفن حلال أمة »
وأما من الخارج فقد انهدم الزخرف وضاعت أسس السيادة . وهى
اليوم أجواق الكهان في يأس وحزن . ترتل أناشيد اللعنة وهى تبكى مصر .
وهام عباد الله يملكون أمر الانتقام الى الله .

ولقد وقف سعد جامداً في مكانه . لا يعالج فرارا خلال سنوات انقضت
بعد اشهار افلاسه الادبي . ولقد وقف هذا الموقف بعد أن أدى مهمته
وأصبح لايهمه من الحياة شيئاً . لانه أدرك الخلود وقرن اسمه بحريق مصر .
وهل من حريق أشد هولاً من أن يسلم لانجلترا في الوطن عندما تحدث مع ونجيت
في ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ وعند ما فوض ملنر في سنة ١٩٢٠ . وعند ما رضى بتسريح
٢٨ فبراير نهائياً عقب تحالف الاحزاب في سنة ١٩٢٦ وعلان سياسة الوفاق التي
قررت اعتماد تصرفات الحماية بإقرار قوانين الحماية وقوانين التضمينات . والتعويضات
والاجتماعات والمظاهرات . ووضع جميع المشروعات القومية في سلة المهملات
وبعث العمل بتلغراف جرنفل عند ما خضع وارضى وهو زعيم الاغلبية أن
يعين عدلى وثروت رئيسين للحكومة بالتناوب . وعند ما أعلن في غير خجل أنه
يريد حكومة زعولوية معنى ولما ودما وروحا . ليهدم التقاليد ويسحق
الكفاءات ويدهور الاخلاق ويربى الفساد ويعود للناشئين على الاجترار
على تفويض الجنسية وإقامة الشخصية الدائمة مقامها وما الى ذلك مما يمكن

الاستشهاد به على صحة تدعيم الحماية على يد سعاد مما سيجيء تفصيلا ونصاً؟
لم يستطع مصري أن يمسك سعاداً كي ينتزع منه أسرار بواعثه على ارتكاب أفعاله . ثم شراء الناقة وفي رقبتها ذلك الحذاء الملعون يعلى من قدرها ويسود بثمنها حتى يجعله عدل ثمن وادى النيل .

ان سعاد لم يكره على الاعتراف وانما اعترف في كبرياء و صلف و بحرفة بأنه اعترف بجنايته ليبقى أمد الدهر ذائع الصيت والشهرة . يدوى ذكره في جميع الأنحاء ويعاود اسمه كل الاسماء

وليس لك في سبيل التحقق من ذلك إلا أن تختبر موافقه ونسم « الطقاطيق » التي بررها هذه المواقف وترى تسليمه الخزي المريب كقوله امن علامات اذن الله بالنجاح ان تولينا الوزارة في الوقت الذي تولى فيه حزب العمال مقاليد الحكم في إنجلترا وهل عندكم تجريدة دلوئي على السبيل . والاستنكار شيء والتنفيذ شيء آخر . والانجليز خصوم شرفاء معقولون . ولانجلترا في مصر مصالح لا تتعارض مع الاستقلال الخ . فهل كل ذلك لا يحمل على الاعتقاد بان الشعب كان دائماً يحاول ارتداء جلد الاسد ليسود ويحكم ويعمل للشهرة والخلود ما اشتهرت انجلترا بضم وادى النيل على يديه . وخلد التاريخ بقاءها فيه . أو بمفاوضات اتقر الامر الواقع وليس لاختطافها من دافع ؟

غير أن هناك فارقا بين هيروسترات وبين سعاد . هذا الفارق هو أن نواب الولايات الايونونية قد أصدروا حكمهم على الاثيم . أما سعاد فقد أفلت . ولكن لا عصمة له من قصاص الله . وقضاء الاجيال المقبلة ولا يمكن أن تكون قوة إنجلترا سبباً في عذرة فقد كانت سياسة مصطفي كامل خير قدوة له

على أننا نرى من الواجب أن نبحث فيما إذا كان هناك عامل آخر قد دفعه إلى هذا التدهور . فإذا وجد وجب أن نتحرى هل هو من الظروف المخففة أم من الظروف المشددة أم من تلك المانعة من العقاب ؟

لقد كان سعد متشككاً بدافم الوراثة إلى حد بعيد . لأن الممدة يريد دائماً أن يرضى كل فرد أو يظهر بمظهر من إريد إرضاء كل فرد . ثم هو في الوقت ذاته يرتضى كل شيء . أو يظهر بمظهر من يرتضى كل شيء فيؤول أمره إلى تمرد ذلك حتى يصير الأمر مادة يتحول إلى غريزة تنقل بالوراثة ولقد كان وسط العرابين ووسط الأزهر ومدارج رقي سعد كالطمي اكتسب تشكك سعد الوراثي خصصاً ونماء وقوة . فهل كان سعد مسؤولاً عن عمله أم غير مسئول؟ وإذا لم يكن فمن المسئول؟

سعد في نظر أنصاره

يرى المعتدلون من أنصار سعد أنه رجل الذكاء والارادة والفكرة . وأما المتطرفون فاهم لا ينورهم من أن يخلموا عليه القاب النبوة . والربوبية . فهو أما أبو الخربة أو أبو الاستقلال أو المنقذ . وأما أنه مريء المقعد والمريض . ولقد اشتد هذان الحى على البعض فجعل بقول « الشرك بالله ولا تكفر بسعد » وإذا نحن أثبتنا أن المعتدلين لم يصيبوا كد الحقيقة أنهم ادعاء المتطرفين . عن تلقاء نفسه ؛ وبعبارة أوضح إن سعداً إذا لم يكن زعيماً بالمعنى الصحيح نزول عنه صفة النبوة ويسقط عنه وصف التأليه . لو أن المعتدلين من السعديين لم يجهلوا علم النفس جهلاً تاماً فكفوا عن الاشارة بكاه سعد وإرادة سعد وفكرة سعد .

فالكذاه إذا تخطى حدوده الطبيعية بموجب قانون الوراثة وحدود الاكتساب بموجب قانون الوسط . جعل شملته تلثمهم كل شيء . وافضى بحكم قانون المقاصة بين المواهب إلى اعدام كثير من المواهب أو أدى بحكم المشاهدات والتجارب الطبية الى الارتباك والتردد والتشكك والشقاء وأما من ناحية

الارادة فنشهد بين يدي الله أن ارادة سعد كانت حديدية . ولكنها ارادة لم تستخدم إلا في ميدان السوء . هذا إلى أن الارادة لا تدخل لها في تكوين العقيدة . لأن مهمتها علمياً قاصرة على الاحتفاظ بالعقيدة بعد تكوينها وسنبين ذلك تفصيلاً عند الكلام عن مهمة الارادة . وتكوين العقيدة

وأما أن سعدا كان رجل الفكرة فقول مردود . لأن الفكرة علمياً هي افراز المخ . ولا يمكن أن يكون التبدل على عكس ذلك بتطبيق نظرية السالك التلفوني . لأن هذا السالك موصل للصوت لا مولد له . فاذا كان المركز العصبي حيث تقم الفكرة قد تهدم . فلا مناص من انعدام افراز الفكرة . أي أنه إذا مات مخاطبك كيف سلك التلفون عن نقل صوته اليك وكذلك إذا فسد مخ الانسان .

أن المخ غدة تؤدي وظائف عديدة مختلفة . كالكبند والسلي الخ . وافرازات هذه الغدة تختلف كافرازات الغدد الاخرى تبعاً لأنواع الحيوان واليك برهان نستخلصه مما نسميه الغريزة .

خذ عصفوراً ساعة فقهه . زربه بهيئاً من أي عصفور . ثم مال بعد أن يشب ويكرر ترى هذا العصفور يصنع عشه على وتيرة اسلافه المصافير . فمن علمه ذلك ؟ أن الذي علمه ذلك هو بلاشك مخه الذي يفرز الفكرة كما يفرز الكبند مرارته وكما يؤدي كل عضو من أعضاء الجسم الانساني وظيفته وفاق قانون الوراثة وهل لحلم ليس دليلاً على افراز المخ للفكرة ؟ إن غدة ما يجب أن تقرر بلا انقطاع وأذن فالنوم لا يؤدي إلى توقف هذا الافراز . والغدة التي تقرر كثيراً أو قليلاً أو في غير كفاية هي غدة مريضة . وهل لا يكون المخ مريضاً طبياً عند ما يكون افرازه زائداً عن المألوف أو عند انعدام الافراز فيتموله عن ذلك الجنون والانجذاب والبله والعتة ؟ لقد كان ذكاء سعد مفرطاً وكان تولد أفكاره زائداً عن الحد الطبيعي فتضاربت وتباينت في غير حساب

لم يمتزج سعد في حياته بأنه مصاب بالبله أو العته أو الخنوب . ولكنه اعترف رسمياً أنه رجل لا رأى له ولا عقيدة . متردد متشكك تكلفه الوظيفة . وذلك في محضر الجمعية التشريعية الرقم ٩٦ يونيو سنة ١٩١٤ حيث قال « أنى كنت قاضياً . وكنت وزيراً . والآن أنا عضو بينكم . وأحس من نفسى أن شعورى كان يحنّ لمصباح ختاف مركزى . وكان لى فى كل مركز شعور خاص ومع ذلك كنت حسن النية فى كل المراكز التى شغلتها كما ينطق بلسانكم الآن بمعاودة الوزير بحسن النية ويقول أنه يعدل بينكم إذا فصل فى أمركم ولا يجحد عن الحق قيد شعرة . كنت كما قلت لكم فى كل مركز لى رأى . ولكن هذا تأثيراً توسط

« اخوانى ! عملت وأنا وزير عملاً لو عرض على الآن لكنت أول المنتقدين عليه والمعارضين فيه بكل قواى . عملت لظروف بررتها و ذلك الوقت أمام نفسى كما يبرر اخوانى أمثالهم الآن . وكنت حسن النية كما أنهم حسنو النية ولكن لو عرض على مثل هذا الامر الآن . أراه خطأ جداً وأنا لم له غاية الا لم أماننا مثل وهو قانون المطبوعات فانى كنت معارضا أولاً فيه وفى اصداره ثم اشتركت بعد ذلك فى اصداره . ثم ندمت على هذا الاشتراك . ولكنى وقتما اشتركت فى اصداره كنت مقتنعا بأنى لاحظت ظروفًا يجب على ملاحظتها وشاهدت بعينى تطبيق هذا القانون . واشتركت أيضاً فى تطبيقه . هذا الاشتراك فى مجلس النظار هو الذى يخيفنى من أحكامه بصفة كونه محكمة » قال سعد هذا القول دون أن يعرباً بالحكمة الخائفة التى القاها مصطفى كامل بقوله « لو انتقل فؤادى من الشمال إلى اليمن أو نحو ذلك الاهرام من مكانها المسكين لما تغير لى عبداً ولا تحول لى اعتقاد »

فبعد هذا التصريح قد أفر بأنه كان فى جميع أدوار حياته رجلاً حاراً متردداً متشككاً فى النهاية . فها هو التشكك وما هو أثره ونتائجه ومدااه وعلاجه ؟ هذا موضوع الجزء الثانى من « النفاحة » مع تطبيقه على سعد .

تصحیح

صواب	خطأ	سطر	صحيفة
ليندر	ليندر	٣	٤
يميز	تميز	٤	٤
آونة	آوء	٢٠	٥
المداء	المداء	٢١	٥
المهضومين	المهضومين	٦	٧
الغاوين	الغاوين	٢٠	٧
وبخنفون	وبخنفون	١٦	٨
فترة	فترة	١٠	١٠
على القلوب	ع' القلوبك	٧	١١
المعارك	لمعارك	١٤	١٤
اذ	اذا	٨	١٥
١٩٣٤	١٩٣٥	١٣	١٦
أو أخطأنا	أو خطأنا	١٥	٢٤
وخذاءه	وخذاعة	٧	٣٠
بنغ	بنغ	٩	٣٦
جميع	جميع	٢	٣٧
أم قواعد	أو قواعد	٢١	٤٦
أصلب هوداً	أصلب هود	١٨	٤٩
الوراثية	الوراثية	٤	٦٨
الاشترك	الاشترك	١٩	٧٣

فهرست الجزء الاول

من الناحية

الرقم	الموضوع	الرقم	الموضوع
٥٠	بعد الثورة العراقية	٣	اللاهوت
	هل هناك عناصر أخرى	٥	مناسبة الأعداد
٥٣	غيرت غرائز محمد	١٣	مذهب الأعداد
٥٣	قبيل نهاية الثورة	١٧	حكمة اليوم
٥٥	بلاغة الخطبة	٢٥	قانون الوراثة وأثره في محمد
٥٧	هل كانت هناك ديمقراطية؟	٢٥	تعريف قانون الوراثة
٥٨	في مجلس النواب	٢٦	ممن أنكر محمد؟
٥٩	الموقف العلمي والسياسي	٢٨	كيف نحكم على محمد؟
٦١	الصحافة والمسرح	٣١	النتائج النفسية لقانون التوارث
٦٢	الموقف الفكري ونحو لائه	٣٥	أبناء الثورة الفرنسية
٦٣	الفنون	٣٩	مواهب الملاحظة
٦٣	الانتاج العلمي	٣٩	المواظف
٦٥	ما هو الرأي العام؟	٤١	في الذكاء
٦٦	هل كان محمد رجلاً سياسياً	٤٢	العادات والذاكرة
٦٧	رجال الثورات الفسيلة	٤٢	قانون الألبسة
٧١	تحالف الأحزاب		قانون البيئة وأثره
٧٤	تغلب الطبيعة على الوسط	٤٣	في التوارث الخاص
٧٤	تيمير	٤٥	في الكتاب
٧٩	نيرون	٤٦	في الأزهر
٨٦	ماذا كان محمد؟	٤٧	محمد بعد تخرجه من الأزهر
٩٢	محمد في نظر أنصاره	٤٩	مع المرابين



